الفصل الرابع

النظم الاجتماعية

- فى معنى النظام الاجتماعى
- وظيفة النظام
- بناء النظام
- التصنيف
- هدفى النظام
- النظام الرائد

أ ـ فكرة الترتيب

ب ـ فى معنى النظام الرائد ٠

- بناء النظام الرائد ٠
- هدفى النظام الرائد
- العلاقات بين النظم
- المصراعات
- الانسجام

النظم الاجتماعية

SOCIAL INSTITUTIONS

فى معنى النظام :

يعتبر مفهوم النظام الاجتماعى من أهم المفاهيم فى الدراسات والبحوث الاجتماعية،حتى أن دوركيم Durkheim اعتبر (علم الاجتماع هو علم الوقائع الاجتماعية والنظم الاجتماعية (١) · وأيضا جنزبرج Ginsberg (علم الاجتماع بمعناه الواسع هودراسة التفاعل والعلاقات المتبـــادلة بين البشر وظروفهم ونتائجها · وعمليا أصبح واضحا أنه اذا حاول علم الاجتماع التعامل مع كل النسيج للعلاقات البشرية فى تعقدها اللانهائى سوف لا يصنع الا تقدما ضئيلا · وطبقا لذلك قصر علم الاجتماع نفسه على دراسة العلاقات الاجتماعية كما هى متجسدة أو محددة فى أشكال معروفة أى نظم اجتماعية · ومن ثم كان تعريف آخر لعلم الاجتماع أنه علم النظم الاجتماعية) (٢) ·

وبالرغم من هذه الأهمية الكبيرة لمفهوم النظام الاجتماعى، (فللأسف فان استعماله وتعريفه بعيدا جدا عن الاطراد،وفى ذلك يقول هوبهوس Hobhouse فى الحقيقة مصطلح النظام الاجتماعى يستعمل بدرجات كبيرة من الاختلاف الى درجة من المشكوك فيه ان له معنى واحدا عاما بالنسبة لكل استعمالاته)(٣) بل أن (بعض علماء الاجتماع اعتبر النظام الاجتماعى مجموعة من الناس فى

---

1 — Timasheff, N.S. : «Social Theory, is nature and growth» Random House. N. York, 1955. P 1.17.

2 — Ginsberg, Morris : «Studies In Sociology», Methuen and Co. Ltd. London, 1932. P. 23.

3 — Nadel, S.F. : «The Foundation of Social Anthropology». Cohe and West Lté. London. 1953. P. 108.

تفاعل منظم ، وبهذا التعريف فأى أسرة أو ناد أو مصلحة أو سجن أو حكومة هى نظام · ونحن نفضل أن يعنى مصطلح النظام مجموعة من المعايير تتكامل حول وظيفة اجتماعية كبرى) (١) ·

على أى حال سنحاول أن نعرف كيف نشأت النظم الاجتماعية ، وأعتقد ان مثل هذه المحاولة قد تقودنا الى معرفة منظمة وأفضل لمفهوم النظام الاجتماعى ·

فالنظم الاجتماعية نشأت فى البداية دون وعى ، أى دون جهد متعمد من الانسان ، اذ كان الانسان فى هذه الفترة المبكرة من حياته يعبر تلقائيا عن دوافعه فى الحياة ، فالانسان لديه حاجات أساسية مثل الأمن والمأكل والملبس والمأوى ، وهو يسعى لاشباع هذه الحاجات · وربما تكون الحاجات رغبات داخلية ، ولكن اشباعها هو أمر خارجى ، فالانسان الجائع يرغب فى الأكل ولاشباع هذه الحاجة عليه أن يبحث فى الخارج عن مادة من بين المواد التى تتيحها له البيئة لاشباع هذه الحاجة ، أى لا بد أن يأتى فعلا ، مثل هذه الأفعال تتكرر طالما أن الحاجة تتكرر · ليس هذا فقط ، بل الأفعال التى نجحت فى اشباع الحاجة تتكرر بنفس الأسلوب ، أى أن هذه الأفعال تؤكد نفسها · وأكثر من ذلك تصبح هذه الأفعال عامة عند الأفراد فى بيئة معينة ، اذ أنهم يقابلون نفس العوامل البيئية أثناء البحث عن اشباع حاجاتهم ، واشباع الحاجات بأسلوب واحد معروف يجعلها سهلة · ومن ثم يجد الانسان أن هذه الأفعال قد يسرت له الحياة وعاونته على التكيف سواء مع البيئة الطبيعية أو مع أخيه الانسان ، ومن ثم يحتفظ بها فى ذاكرته كأدوات ميسرة للحياة ، ومن ثم تصبح هذه الأفعال **انماطا سلوكية** اجتماعية لاشباع الحاجات ، وهى اجتماعية لأنها أصبحت عامة عند أعضاء المجتمع ·

---

1 — Young, K. and Mack, R. : «Systematic Sociology.» Affiliated East-West press. Ltd. 1972. P. 323.

(فمناشط جمع الغذاء وصنع الأدوات والنوم والمأوى لم تفعل مرة واحدة ، ولكنها تكررت ، واختيرت الأساليب التى اعتبرت أحسن ، وأصبح الأفراد المشتركون منظمين خلال التكرار للفعل الجمعى ، ومن ثم يمكن القول أن الرغبات العامة للجنس البشرى سببت مناشط متتابعة اتخذت لنفسها أنماطا اجتماعية) · (١)

وعند هذه النقطة أحب أن أوضح أن أنماط السلوك الاجتماعية أو العادات الاجتماعية أو الأفعال الاجتماعية المنبعثة من الاشباع المعتاد للحاجات ليست بالضرورة تمت عن وعى ، وبالرغم من ذلك فهى اجتماعية ، اذ يعتبر فبر Weber الفعل اجتماعيا عندما يوجه الى سلوك الآخرين (٢) · وفى الحقيقة ان أفعال أعضاء الجماعة تؤثر عادة فى المحيطين بهم أو المحتكين معهم فى أى نوع من الاحتكاكات ، سواء كان يقصد الانسان مثل هذا التأثير أم لا يقصده · ولهذا فلا يوجد فعل غير اجتماعى طالما هو صادر عن فرد يعيش فى جماعة اجتماعية ، أوله احتكاك أيا كان مع رفقائه ، فما يفعله انسان يعيش فى جماعة لا بد أن يكون له انعكاس اجتماعى سواء يعلمه هو أو لا يعلمه · فسلوك أى فرد فى جماعة بالضرورة فعل اجتماعى ، ولكن ليس بالضرورة عن وعى ، فليس كل التنظيمات الاجتماعية هى نتاج المجهود الواعى ، فقد يوجد كثير من التنظيمات دون أن تكون قد خططت بوعى لأى هدف · فيمكن أن تنمو درجة عالية من التنظيم بلا وعى ، وأصدق مثل على ذلك قواعد اللغة ، فكثير من الشعوب لا تعرف حتى أن للغتهم قواعد ، وأيضا بالمثل نظام الأسرة نمى بدون أى تخطيط واع) (٣) ·

---

1 — Ogburn, W. and Nimkoff : «A Hand Book of Sociology» Routledge and Kegan poul Ltd London 1953. P. 365

2 — Weber, Max : «The Theory of Social and Economic organization». Oxford, New York, 1947. p. 112.

3 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 365.

ولقد كان يوما مشهودا عندما اكتشف الانسان أن الأهـــداف التى أنجزتها أفعاله تمت بشكل أحسن عندما امتزجت مجهوداته مع مجهـــودات الآخرين من أعضاء المجتمع ، أى أن تعاونهم أدى الى قدرة أكبر على اشباع حاجاتهم بل وأسرع وأسهل · فهناك منجزات كثيرة لا يستطيع الانسان اتمامها بمجهوداته الفردية ، فهو لا يستطيع أن يقوم وحده بصيد حيوان مفترس كبير ولكنه يمكنه أخذ نصيب أكبر من هذه الأشياء مما يستطيع الحصول عليه بجهده الفردى · ولكن بتعاونه مع الآخرين حصل على نصيب أكبر وبجهد أقل على شريطة أن يسمح لهم بأخذ نصيبهم مثله ·

كما أن الحاجات الفردية تتصارع فى نفس الوقت ، فمثلا قد يطلب رجلان نفس الفريسة أو نفس المرأة أو نفس المأوى ، مثل هذا الصراع يهدد اشـباع الحاجات الأساسية بل وجود المجتمع ذاته ، ومن هنا نشأت الحاجة الى أفعال تنظم المنافسة فى داخل هذا النسق الكبير من التعاون ، هذه الأفعال تتخذ الصفة الاجتماعية عندما تصبح مشبعة لحاجة الامن عند أعضاء المجتمع ، هـــذا الاشباع يعطيها تصديقا من أعضاء المجتمع ، ومن ثم تتكرر وتتأسس لمنـــع اندلاع العنف وتصبح أنماطا للسلوك الاجتماعى ·

وهكذا عمليتى التعاون والصراع أدت الى نشأة أنماط من الســـلوك الاجتماعى التى تأسست تدريجيا وتجريبيا كأساليب ناجحة لاشباع الحاجات ثم تجسدت فى أفعال اجتماعية · وهكذا أصبحت النظم الاجتماعية كما يقول الوود Ellwood (النظم الاجتماعية هى ببساطة العادات الاجتماعية التى نسقتها ونظمتها وأسستها الجماعات وما زال ملتصقا بها تحريمات قوية ·· ومن ثم يمكن تعريف النظم الاجتماعية كأساليب اعتيادية للحيـــاة قوتهـــا بالجزاءات ونسقتها وأقامتها سلطة المجتمعات) (١)

---

1 — Landberg : «Foundations of Sociology». The Macmillan Comp. 1956. P. 376.

ويمكننا الآن أن نتحدث بتفصيل أكثر كيف نشأت النظم الاجتماعية من الأفعال الاجتماعية ، لقد رأينا كيف أن دوافع الانسان الأساسية وحاجاته أجبرته على أن يفعل ويعبر : أولا كان يفعل بطريقة تلقائية أو ما يمكن أن نسميه المحاولة والخطأ، فاذا كان هذا الأسلوب كافيا لحفظ وديمومة الحياة فالجماعة تقبله وينتقل من جيل الى جيل ، ومن ثم يصبح عادة اجتماعية ، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع أن يسميه أساليب شعبية Folkways • وعندما تثبت الأساليب الشعبية ، فهى تنمو راسخة متماسكة وتصبح ذات هيبة وقوة • وعندما تصبح الاساليب الشعبية قهرية آمرة ، والتحول عنها يعزل الفرد عن الجماعة ، وفى نفس الوقت يناله عقوبات شديدة ، عند ذلك تكون قد نمت فى شكل عادة اجتماعية Custom وبالرغم من أن العادات الاجتماعية هى ضبط قوى على سلوك الانسان ، فعادة لا يشعر بها الانسان أثناء عملها ، اذ أنها تؤخذ على أنها مضمونة الصواب • فى نفس الوقت بعض العادات الاجتماعية تصبح موضوعا للتفكير العقلى اذ تقرر أحسن أشكال السلوك المعروفة فى مواجهة حاجة معينة • مثل هذه العادات الاجتماعية تعرف بما يسمى معايير Norms • وعندما تنشأ قواعد محددة وتنظيمات وقوانين وبناء اجتماعى لتقوى وتديم المعايير ، تصبح نظما اجتماعية •

ومعنى ذلك انه لا الأساليب الشعبية ولا العادات الاجتماعية ولا المعايير يمكن أن نسميها نظما اجتماعية ، بل هى بالأحرى ظواهر اجتماعية ، والشىء الذى يجعل من هذه الظواهر الاجتماعية نظما اجتماعية هو ترابطها وتشابكها بعضا مع بعض لتؤلف نسقا واحدا متكاملا ذا درجة عالية نسبيا من الاطراد والرسمية والعمومية (ويكفى أن نكرر اننا نعنى بالنظام نمطا من سلوك جماعة بشرية ونحن نقتصر ونحدد هذا الاصطلاح على بعض الأنماط ، أعنى ، المستقر والرسمى والعمومى نسبيا ، فى مقابل اللامستقر واللارسمى التى سبق أن ميزناها كأساليب شعبية أو عادات أو موضات) (١) • من ذلك يتضح أن الخط

---

1 — Landberg : «Foundations of Sociology» The Macmillan comp. 1956. p. 376.

الفاصل بين النظم الاجتماعية وسائر انماط السلوك الاجتماعى هو بالدرجة الأولى درجة عالية من الاستقرار والدوام والاطراد والرسمية والعمومية · فكل مجتمع ينظم السلوك النظامى بأسلوب رسمى أكثر من أنماط السلوك الأقل أهمية وان كان مسموحا بها ·

ذلك يعنى أن أعضاء المجتمع أثناء مباشرتهم لحياتهم اليومية ينشأ بينهم انماط من السلوك ، وذلك هو ما نراه ونلاحظه فى المجتمع ، وكلما كان نمط السلوك هاما بالنسبة لأوجه الحياة فى المجتمع ، ازداد السلوك تنميطا وتقنينا (رسميا) ، ويزداد أيضا غرسه فى كل أو معظم أعضاء المجتمع (عمومية) ، وتتناقله خلال التراث الاجتماعى (استمرارا) ، وهنا يمكن تسمية هذا النمط من السلوك بالظاهرة الاجتماعية فاذا تجمعت مجموعة من هذه الظـــواهر الاجتماعية حول موضوع معين واكتسب درجة عالية من الخصوصيةوالتماسك الداخلى ، انه عادة يعتبر علماء الاجتماع هذا التجمع نظاما اجتماعيا· وذلك يقودنا الى ملاحظة هامة ، وهى أن عملية الانتظام Institulization هى مسألة درجة ، بمعنى أن هناك نظما أخرى تقلل كثيرا أو قليلا فى عمومتها أو رسميتها أو اطرادها ، فمثلا هناك فرق كبير بين نظام الأسرة الذى يتمتع بنسبة عالية من العمومية والرسمية والاطراد ، وبين نظـام الثأر الذى تتضـــاءل عموميته فيقتصر على جزء صغير من المجتمع ويستهجنه معظم أعضاء المجتمع العام ، وان كان يطلق على كل من الأسرة والثأر نظام اجتماعى ·

فالنظم الاجتماعية هى أنماط من السلوك تتجمع حول الحاجات الرئيسية للكائنات البشرية ، وفى تحليلنا للتفاعل الاجتماعى اعتبرنا الأساليب الشعبية والسنن والقوانين والتوقعات المعيارية التى تنشأ من حياة الجماعة تأخـــذ درجات مختلفة من الأهمية ، وأنها تتكرر ويورثها أعضاء المجتمع للأجيـــال التالية أى تنقل فى التراث الاجتماعى ، فمعظم هذه الأشكال من السلوك المقننة التى تتجمع حول حاجات بشرية معينة ، توجد فى كل المجتمعات تقريبا ، وهى

ضرورية لتنظيم الحياة الاجتماعية ، وهذه الضرورة تجعلها تتمتع بالاستمرار والاستقرار ، وتعمل هذه الأشكال من السلوك كمرشد للسلوك الانسانى ، ولهذا فالنظم الاجتماعية هى أنماط اجتماعية تقود السلوك المنظم للكائنات البشرية لانجاز أهدافهم ومناشطهم اليومية ٠

فحين يتكلم علماء الاجتماع والانثروبولوجيا عن النظام الاجتماعى فانهم يقصدون على العموم أنماط العمل أو الفعل الاجتماعى التى تحدث بطريقة منظمة ورتيبة والتى ترمى الى تحقيق هدف محدد بالذات ، على أساس أن كل نمط من أنماط السلوك له نوع محدد من الأهداف ، وكل هذا يتبلور فى النهاية فى وجود درجة من الاطراد والتقنين فى السلوك الاجتماعى تجعله يتواءم ويتفق مع المعيار الذى يوجه الناس فى حياتهم وفى أعمالهم (١) ٠ ولذلك يعتبر روز Rose أن (النظم الاجتماعية هى الانساق المعيارية التى تنظم السلوك وتحدد العلاقات الاجتماعية فى مختلف وجوه الحياة) (٢) وفى كلمات هملتون Hamilton (النظام الاجتماعى هو رمز لفظى ، وللحصول على وصف أحسن وأوضح هو تجمع لعديد من العادات الاجتماعية وهو يتضمن أسلوبا للتفكير أو العمل ذا تأثير قوى ودائم) (٣) (فما سمى بالنظم هى فى صميمها وأعماقها ليست ببساطة أقساما من المجتمع ، ولكن شبكة من الافكار تتعلق بوجوه معينة من الحياة الاجتماعية قادت كثيرا من علماء الاجتماع المحدثين الى تعريف النظم كأنساق معيارية Normative Systems تجمع من الطرائق الشعبية والمعايير والقوانين ، أو أساليب للفعل تنظم السلوك وتعمل

---

(١) د ٠ احمد ابو زيد : البناء الاجتماعى ، الجزء الاول ـ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ص ١٢٦ ٠

2 — Rose, Peter J. : «The Study of Society» Rondom House Inc. N. Y. 1967. P. 523.

3 — Walton H. Hamilton : «Eucyclopaedia of the Social Scienses» Vol. 8., The Macmillan Company N. Y. 1954. P. 84.

على تنظيم وتحديد العلاقات الاجتماعية فى مختلف المجالات (١) · ولهذا اعتبرت النظم أهم عنصر من عناصر البناء الاجتماعى ·

وظيفة النظام
FUNCTION OF INSTITUTION

فالنظم تقدم أساليبا مقننة لأشباع الحاجات المتكررة مثل التناسل والغذاء والمأوى والحماية المتبادلة · ومن ثم يصبح دور النظام هو اشباع هذه الحاجات المتكررة ، وهذا الدور هو مايطلق عليه علماء الاجتماع وظيفة Functionالنظام (اننى أعنى بوظيفة النظام الجزء الذى يؤديه فى النسق الكلى للتكامل الاجتماعى الذى يعتبر النظام جزءا منه وباستخدامى لعبارة التكامل الاجتماعى ، فاننى أقول ان الوظيفة للثقافة ككل هى أن توحد أفراد الكائنات البشرية فى بناء اجتماعى مستقر قليلا أو كثيرا ، أعنى انساق مستقرة تعرف وتنظم علاقات هؤلاء الأفراد كلا مع الآخر وتقدم ملاءمة مع البية الطبيعية ،، ومواءمة داخلية بين الأفراد أو الجماعات المكونة للمجتمع لتوفير حياة اجتماعية منظمة) (٢) ·

وان كانت الحاجات الانسانية الأساسية هى بواعث النظم الاجتماعية وتقبع وراءها ، فليس معنى ذلك أن كل حاجة اجتماعية يقابلها نظام اجتماعى أى أنه لا يمكن ولم يوجد ذلك المجتمع الذى فيه حاجاته الأساسية تتطابق مع نظمه الاجتماعية · ذلك يرجع الى أن الحاجة الاجتماعية الواحدة يمكن أن يشبعها أكثر من نظام ، فمثلا حاجة التربية ليس للنظام التعلمى عليها سيادة،

---

1 — Rose : Op. Cit., P. 524.

2 — Radecleff, A.B. : «The present position of anthropologieal studies» British Association for the advancement of science, Centenary Meating, London 1931. Section H.P. 13.

فهو لا يقوم باشباعها وحده ، ولكن أيضا النظام الأسرى يشبع هذه الحاجة ، وكذلك النظام الدينى بل وأيضا النظام الترفيهى ٠

وبالمثل النظام الاجتماعى وان كانت أنشأته حاجة اجتماعية ، فانه بعد انشائه يخرج من سيطرة هذه الحاجة ، ويصبح له ذاته المستقلة ومن ثم يتجه لوظائفه فى المجتمع دون ما قيد عليه من الحاجة الاجتماعية التى تطلبت انشاءه أو حتى من الناس الذين يمارسونه ، ومن ثم (لا يمكن الادعـــاء بأن نظاما اجتماعيا ينجز وظيفة واحدة ٠واضح أنالوظيفة الرئيسية والخاصة للأسرة هى حفظ علاقات عاطفية خاصة بين الناس الأقارب طبقا لعادات اجتماعية معينة ، ولكن الأسرة بدرجات وأساليب مختلفة تعتبر نظـاما اقتصاديا ٠ وفى بعض المجتمعات تجهز الأسرة البناء المقبول للرعاية الدينية ، وهى أيضا نظام تربوى حتى أن المربين المهنيين عادة يرجعون فشل التربية الرسمية الى قصـــور الآباء) (١) ٠

وغنى عن البيان أن المناشط الانسانية كثيرة وعظيمة التنوع ، والرغبات الانسانية غير محدودة ومتجددة ، فاذا أنجز كل نظام اجتماعى وظيفة واحدة فقط ، فمعنى ذلك أنه يستزم عددا كبيرا جـــدا من النظم لاشباع الحـــاجات الانسانية ، بينما الملاحظ فى الواقع الاجتماعى أن نظاما اجتماعيا واحـــدا ينظم أصلا لانجاز وظيفة ما ، ولكنه بعد ذلك يتجه الى انجاز وظائف متعددة ومتنوعة سواء عن قصد أو غير قصد ، وهذه الحقيقة تتميز بهـــا النظم الاجتماعية الكبيرة ، فالنظام الدينى هو أصلا نظام للعبادة ، ولكنه أيضا ينظم الأخلاق وينظم كثيرا من الأمور الصحية ، وتباشر بعض مؤسساته التدريس ٠

ذلك يرجع الى أن (النسبة الكبيرة من النظم الاجتماعية ذات طبيعة مركبة ٠ وتعبر عن أهداف متعـــددة وسلسلة كبيرة من النظم الاجتمـاعية

---

1 — Hughes, E. CH. : «Institutions». In Alfered Lee, «Prencipal of Sociology. P. 230.

التفصيلية · هذه النظم ذات الطبيعة المركبة يمكن تحليلها الى عنـــاصرها الجزئية التى تعبر كل منها عنأحد أهداف النظام · ومن ثم يمكن تحليل نظام الزواج فى مجتمع معين من المجتمعات البدائية الى هذه العناصر : الصداقة ، والمهر ، والاحتفالات ، والعلاقات الجنسية ، والمحرمات ، وتقسيم الملكية ، والترمل وأخيرا الطلاق ··· العناصر فى أى نظام اجتماعى تتماسك معـــا بطريقتين ، أن كلا منها تحتاج الآخر عمليا Pragmatically وذلك لتحقيـــق أهدافها المتعددة ، ولهذا فانها تقع فى وحدة وظيفية · وأنها أيضا كجزء من الأفعال تلائم وتعين اتجاها قصديا شاملا يبدو ملتصقا بالنظام) (١) ·

وهذا يوضح فكرة التداخل فيما بين النظم الاجتماعيـــة ، أى أن النظم متشابكة الى حد يتعذر معه على الدارس أن يقرر لأول وهلة وبصفة قاطعة ، ما اذا كان هذا النمط أو ذاك من السلوك هو خاص بنظام معين ، وليس له علاقة أو أثر من نظام آخر،مما يؤكد أنه لا يمكن دراسة نظام ما بعيدا عن سائرالنظم، ومن ناحية أخرى يؤكد ان المجتمع ما هو الا بناء اجتماعى وحداته النظـــم الشديدة التداخل والتشابك · وهذا ما دعى هيوز Hughes الى القول (بأن لا نظام ، مهما صنف يمكن فهمه فى عزلة ، فالكنيسة ، نحن نقول ، هى نظام دينى ، ولكن يعتمد وجوده على نظم أخرى ، وعلى أجزاء غير رســـمية من ثقافتنا ، فالاتجاهات الدينية التى تتبناها الكنيسة ليست لاهوتا فقط · ولكن أيضا كمواضيعلها ملامح من النظام الاقتصادىوالنسق السياسىوالأسرة)(٢)·

ولا يعنى ذلك أن كل نظام ليس له وظيفة رئيسية ينجزها ويكون مسئولا عنها فى المجتمع بالدرجة الأولى · وهذه الوظائف هى التى تعطى النظـــام اسمه فى المجتمع · وعادة يسمى علماء الاجتماع هذه الوظائف الرئيســـية

---

1 — Nadel, S.F. : The Foundations of Social Anthropology» Cohen and West, L.T.D., London, 1953. P. 107.

2 — Hughes : Op. Cit., P. 231 — 232.

للنظم بالوظائف الظاهرة للنظم فالنظام الدينى وظيفته الرئيسية هى العبادة ، والنظام التربوى هى تربية أعضاء المجتمع والنظام الأسرى هى تقديم الأعضاء الجدد للمجتمع (الأنسال) ، والنظام الاقتصادى انتاج وتوزيع واستهلاك السلع ، والنظام القانونى هو توفير الأمن لأعضاء المجتمع ، ورغم ذلك ، فكل من هذه النظم تشبع حاجات متعددة ، كما أن كل حاجة اجتماعية كالعبادة ، أو التربية أو الأمن تشبعها أكثر من نظام · وهذا ما جعل مالينوفسكى Malinowski يقول : (ان الوحدات الحقيقية لعناصر الثقافة التى لها درجة عالية من الدوام والكلية والاستقلال ، هى الأنساق المنظمة للمناشط الانسانية وتسمى نظما · وكل نظام يدور حول حاجة أساسية ، وباستمرار توجد جماعة من الناس فى عمل تعاونى ، ولهم مجموعة خاصة من المعتقدات والأساليب الفنية، وليست النظم مرتبطة ببساطة ومباشرة بوظائفها ، فقد لا تنال احدى الحاجات اشباعا واحدا من نظام واحد · ولكن النظم تظهر اندماجا واضحا للوظائف)(١)

مثل هذه الاعتبارات قادت علماء الاجتماع أمثال دوركيم وشابين Chapin وميرتون Marton الى التمييز بين الوظائف الكامنة Laten والوظائف الظاهرة Manifest · فتشير الوظائف الظاهرة للنظم الى النتائج المقصودة والمعروفة للنمط السلوكى ، وتشير الوظائف الكامنة الى النتائج غير المقصودة وغير المعروفة · واذا أردنا التدقيق فى التمييز بين الوظائف الظاهرة والكامنة ، فان ذلك يتضح اذا استخدمنا المثل الذى ضربه ميرتون ليوضح لنا ما يعنيه بالوظيفة الظاهرة وتلك الكامنة ، فيقول (اذا أراد باحث أن يدرس الوظائف الظاهرة فلا بد عندما ينظم تجربة من أجل غرض خاص أن يحدد : هل أنجزت التجربة فى الحقيقة هذا الغرض · مثلا سوف يبحث ، هل أنجز نظام جديد من دفع الأجر أغراضه المقررة من تقليل لانقلابات العمال أو زيادة الانتاج · سو فيسأل هل نجحت حملة دعاية حقيقية فى تحقيق موضوع زيادة

---

1 — Malinowski, B. : «Culture» Encyclopaedia of the Social scienses, 1931. P. 626.

الرغبة فى الحرب أو الرغبة فى شراء سندات الحرب(١) · مع التسليم بمفهوم الوظائف الكامنة يتابع ميرتون حديثه ان الباحث لا يختبر فقط الخبرات الاجتماعية المعتادة ، ولكن يقول ميرتون (ان نتائج برنامج حملة الدعايةليس تضخيم الغرض المقرر ، وهو اثارة الحماس الوطنى ، ولكن أيضا جعل عدد كبير من الناس يأبون مناقشة عقولهم عندما تختلف آراؤهم عن السياسة الرسمية (٢) وميرتون يقصد هنا أن الوظيفة الظاهرة لحملة الدعاية ليس هى اثارة الحماس الوطنى لزيادة الرغبة فى الحرب أو شراء سندات الحرب، ولكن الوظيفة الكامنة هى منع عقول الناس من مناقشة شرعية الحرب التى قررتها الهيئات الرسمية ·

ويذهب ميرتون الى أن التمييز بين الوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة يؤدى الى تحقيق أهداف هامة فى البحث الاجتماعى · اذ أنه يساعد على تحليل الأنماط الاجتماعية التى تبدو للباحث أنها خرافية وغير منطقية ، كما يساعد على تفسير كثير من العادات والتصرفات الاجتماعية التى تصدر عن الناس دون هدف واضح لها · ويظهر هذا واضحا فى المجالات التى يحاول فيها بعض الباحثين الوصول الى تفسير منطقى مقبول لبعض العادات غير المألوفة لهم فيصفونها بأنها أمور خرافية أو أنها مجرد بقايا ومخلفات من الماضى البعيد · فمثلا تمارس قبائل اللوبى بعض المراسم والطقوس لاستنزال المطر ، ولقد يكتفى بعض البحاث الغرباء عن المجتمع بأنها مجرد مسائل خرافية دون محاولة البحث عن تفسير مقنع لها ، بينما باستخدام فكرة الوظيفة الكامنة فى تفسير هذا النوع من السلوك يعاون فى البحث عن الوظيفة التى تؤديها هذه الشعائر للمجتمع ، اذ يرى ميرتون أن مثل هذه الطقوس والشعائر تعمل على زيادة قوة شخصية الجماعة فهى تعمل على تجمع أعضاء المجتمع المبعثرين بقصد أداء هذه الشعائر ، ذلك يعنى أن فكرة الوظيفة الكامنة قد أعطت لنا شرحا للسلوك الذى كان يبدو غير معقول لأول وهلة ·

---

1 — Merton, R. K. : «Social Theory and Social Structure», The Free Press, 1957. P. 65—66.

2 — Merton : Op. Cit., P. 65 — 71

Marton : Op. Cit., P. 65—71.

كما يذهب ميرتون الى أن البحث عن الوظيفة الكامنة يقتضى من الباحث التعرف على ما اذا كان النظام أو النشاط الاجتماعى الذى يمارسه افـــراد المجتمع للوصول الى غرض معين قد حقق هذا الغرض ٠

ويذهب ميرتون الى القول بأنه فى اللحظة التى ينقل فيهـــا الباحث الاجتماعى اهتمامه وتفكيره من مستوى الوظيفة الظاهرة الى مستوى الوظيفة الكامنة يكون قد حقق أهم جانب فى رســـالة العلم ٠ اذ يؤدى البحث عن الوظائف الكامنة الى وظائف ملموسة فى معلوماتنا الاجتماعية، فكثيرا مايؤدى البحث عن الوظائف الكامنة عن وجود وظائف للسلوك الاجتماعى تتناقض تماما مع الآراء الشائعة والمعروفة بين الناس ، مما يعنى أن الوظائف الكامنة قد تناقض الوظائف الظاهرة (١) ٠

وقدم أرنولد روز Rose شرحا للوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة٠ فالوظيفة الظاهرة هى التى تظهر وكأنها وظيفة النظام المقصود عمدا ٠ ويعتبر أن الوظائف الكامنة هى نتائج مطردة لمناشط النظام ولكن غير مشعور بها ، اذ عادة لا يشعر الممارسون للنظام بهذه الوظائف ، ولـــكن يدركهـــا فقـط الملاحظون من خارج النظام والذين يشاهدون الآثار المتكررة لنشاط الجماعة ، وان كانت ليست واضحة فى المناشط المقصودة للجماعة أو المعلن عنها ٠

ويضرب أرنولد لذلك مثلا بالمدرسة كنظام اجتماعى ، فيعتبر أن المعانى المتضمنة فى المدرسة هى تعريف بالكتب وسبورة وامتحان للانتقال من سنة دراسية الى أخرى ، فبينما القيم المفروض أن يعرفها الطالب لينتقل من سنة الى أخرى ، فى الاحترام الواضح للمدرسين والمشاركة فى مناشط دراسية اضافية ٠ والنظام ككل هو أداة لانجاز بعض القيم العالية والمنتشرة والتى وظائفها واضحة ٠ فالوظيفة الظاهرة للمدرسة هى تقديم مهارات أساسية معينة

---

(١) د ٠ احمد ابو زيد : المرجع السابق ذكره ص ١١٣ ـ ١١٧

لكل الأشخاص وتمد الأطفال بالمعلومات التى ستجعل منهم مواطنين أذكياء عندما يصبحون بالغين ، وتعاون فى التدريب المهنى ، واستمالة بعض الصغار للشغف بالعلم الذى سيجعل منهم فى المستقبل علماء · وبينما الوظائف الكامنة للمدرسة من الصعب مشاهدتها أو اثباتها أو الحديث عنها ، طالما أنها بطبيعتها الذاتية خفية بعض الشيء · ولقد تكون احدى الوظائف الكامنة للمدرسة هى تنمية أنواع من الولاء عند التلميذ لاتجاه أو فكرة معينة ·ولقد يقـــال ان المدارس العامة لها وظيفة كامنة وهى وضع الأطفال من مختلف الجماعات الجنسية والمستويات الاجتماعية الاقتصادية فى احتكاك كل مع الآخر (١) ·

وقد يتوافق هذان النمطان الى درجة كبيرة ، فاذا كان كذلك ، يحتمـــل أن يكون هناك درجة عالية من التكيف تظهر الى الوجود فى الأمـــور التى تحكمها هذه الأنماط ، ومن ناحية أخرى قد يكون النمطان عمليا متبادلا المنع ، أى يمنع كل منهما الآخر عن أداء وظيفته ، اذا حدث هذا ، قد تكون النتيجة صراعا واضحا عندما يشرع كل من النمطين فى أداء وظيفتهأوركودوجمود أحد الأنماط لحساب الآخر · مثل هذا الجمود اذا حدث للنمط الكامن قد يصل به الى حد الطمس المؤقت أو الدائم · أما الجمود اذا حدث للنمط الظاهر يعنى ان هناك بناءا مستمرا فى الوجود ولكنه توقف جوهريا عن أداء وظيفته ، ولكن مستمرا مظهريا فى المناشط الرسمية والحفلات ، هذه الأنماط النائمة أو التى لا تؤدى وظائفها تمثل قنواتالنشاط السابقة التى تكون ساكنة نسبيا أو تفككت، فهى مثل القنوات التى لم يعد النهر يجرى فيها ، أو يجرى فيها قليلا جدا ، أو بصفة غير دائمة ومتقطعة ، وغالبا هى نظم قائمة ، ولكن لا تؤدى وظائف (٢) ·

---

1 — Arnold Rose : «The study of Huaman Reletions». 3ed Ed., Alfred A. Knopf, N. Y. 1969. P. 155—156.

2 — Lundberg : «Foundation of Sociology». P. 379—380.

وأحب أن أزيد الوظيفة الكامنة تفسيرا وايضاحا الى جانب التفسيرات التى سبق أن عرضتها · وانطلاقا من مفهوم النظام الاجتماعى وما اتفق عليه علماء الاجتماع من أنه مجموعة من الأنمـــــاط السلوكية التى أشبعت حاجة اجتماعية فاكتسبت التصديق والقبول من أعضاء المجتمـــــع فتكررت وسنت ووضعت لها القواعد والجزاءات وأصبحت ضرورية للحياة الاجتماعيـــة · ولهذا فكل الوظائف التى يؤديها النظام هى اشباع لحاجات انسانية أساسية اجتماعية ، ومن ثم فهى وظائف ظاهرة عند مؤسسى النظام ، ولكن بمـــرور الزمن وتوارث الأجيال للنظام ، تختفى تدريجيا الفكرة الأساسية التى أنشىء من أجلها النظام باختفاء مؤسسيه والجيل التالى الذى عاشرهم ،وتصـــبح الأجيال التالية تمارس النظام دون أن تدرك السبب الحقيقى لذلك النظام ، فمثلا فى النظام الطوطمى الذى يدعو الى الزواج من الخارج ، والوظيفـــة الكامنة لنظام الزواج من الخارج كما يقول ميرتون هى انشاء علاقاتاجتماعية واقتصادية بين الجماعات الاجتماعية · وأصبحوا يمارسونه اعتقادا منهم أنه اذا تم الزواج من الداخل فيه اغضاب للطوطم وتحل بهم نقمته ، أى ألصق الرجل البدائى بنمط السلوك تحريما دينيا ليضمن مؤسس النظام عدم خروج الأجيال المتعاقبة عليه ، وأصبحت الوظيفة الظاهرة وهى العمل على انشاء علاقات اقتصادية واجتماعية مع الجماعات المجاورة هى الوظيفة الكامنة ، وأصبح ارضاء الطوطم هو الوظيفة الظاهرة ، ذلك لأن هذه الأجيال لم تر الصراعات بين الجماعات التى أوحت لأجدادهم الأوائل بانشاء هذا النظام ·

تغير الوظيفة :

وتقودنا هذه النقطة الى فكرة تغير وظائف النظام ، فوظائف النظـــام ليست جامدة طالما أن النظام جزء من المجتمع الدائم التغير فهى أيضا يجـرى عليها ما يجرى على الكل من تغير · فقد تنقص وظائف النظام أو تزيد ، أو تأخذ

شكلا جديدا تماما ، أى يمارس النظام نشاطا يختلف تماما عما كان يمارسه من قبل ٠

فمثلا من ناحية تناقص وظائف النظام ، فالأسرة فى المجتمعات القديمة والمجتمعات البدائية حيث لم يكن هناك فى المجتمع الا النظام الأسرى والنظام الدينى ، ومن ثم كان على النظام الأسرى أن يشبع كافة حاجات أعضـــاء المجتمع ٠ ولهذا كان النظام الأسرى يقوم بكل الوظائف ـ من تربوية واقتصادية وسياسية وحتى حربية ـ وبتطور المجتمعات وكبرها وزيادة التخصص ، لم يعد النظام الأسرى فى قدرته اشباع حاجات هذه المجتمعات الكبيرة ، فمن ثم نشأت نظم أخرى لتقوم بالوظائف التى عجزت الأسرة عن أدائها مثل الوظيفة الاقتصادية (المصانع) الوظيفة التربوية (المدارس) الوظيفـــة السياسية (الحكومة) الوظيفة الحربية (الجيوش) ، وأصبحت وظيفتها الرئيسية فى المجتمعات الحضرية هى التنشئة الاجتماعية والأنسال أى مد المجتمع بالأعضاء الجـــــدد ٠

أما من ناحية تزايد وظائف النظام ، فالنظام الصناعى عند نشأته فى القرن الثامن والتاسع عشر كانت وظيفته هى انتاج السلع ، ولكن سرعة التغير التكنولوجى والمنافسة بين الصناعات فى القرن العشرين جعـــلت كثيرا من المصانع الكبرى تتولى وظيفة البحث العلمى ، فأنشأت مراكز للبحث العلمى تتبعها ، وأيضا كثير من المصانع تقوم الآن بالوظيفة التربوية أيضا ، فأنشأت فصولا لمحو الأمية ومراكز للتدريب المهنى ٠

أما من ناحية تحول النظام تحولا كليا عن وظيفته التى أنشىء من أجلها الى وظيفة أخرى مختلفة تماما ٠ فنظام الطوائف المهنية الذى نشأ فى روما القديمة أنشأه الامبراطور ليقضى على التناحر بين القبائل التى كانت تتكون منهم روما ، بمعنى أن يتجمع الحدادون مثلا من جميع القبائل فى طائفة الحدادين حتى يتناسوا التقسيم الجغرافى الاقليمى والنعرة القبلية وبذلك تتوحد روما ،

وبعد أن تم توحيد روما واتسعت الدولة الرومانية أصبحت روما مجتمعا واحدا ، ومعنى ذلك أن وظيفة النظام توقفت ، وكان على النظام أن يزول بزوال وظيفته لأن الحاجة التى كان يشبعها زالت فلم يعد المجتمع فى حاجة اليه (١) · ولكن بناء النظام ما زال موجودا فبحث لنفسه عن وظيفة أخرى ، وهى رعاية مصالح أبناء الطائفة الواحدة ، بمعنى أن طائفة الحدادين ترعى مصالح الحدادين وهكذا ·

ذلك ما جعل أوجبرن Ogburn يعتبر أن أحد المظاهر الهامة للتطور الثقافى هو التعديل لوظيفة نظام بينما بناؤه يقاوم · فعادة البناء لا يتغير مثلما تتغير الوظيفة · وربما يوضح هذا صعوبة عمل أو اختراع بناء اجتماعى جديد · وتسمى هذه الظاهرة فى بعض الأحيان القصور الذاتى الثقافى ، أو قوة الاستمرار الثقافية Culturalinertia ·وان كان هناك قوة استمرار أيضا فيما يختص بتغير الوظيفة ، الا أنه غالبا يتغير البناء أقل بسبب أن هناك حاجة أقل الى تغييره لأن نفس البناء يمكن عادة أن يخدم أغراضا كثيرة (٢) ·

مثلهذه الاعتباراتقادت عالم الاجتماعلندبرج Lundberg الى اعتبار (أن كلمةالبناء Structure تستعمل لوصف الوجه المستقر والثابت نسبيا للنظام والوجه الديناميكى يسمى الوظيفة ، فىكلمات أخرى البناء هو وظيفة ثابتة ، والوظيفة هى سلسلة من بناءات سريعة التغير) (٣) ·

وفى الحقيقة أنه عندما ندرس النظام ، نحن ندرس (أ) أنماط سلوك اجتماعى ، بينما من أجل الأغراض التحليلية ربما ندرس (ب) البناء والوظيفة منفصلين، فالكلمتان تشيرانفقط الى مظهرين لنفس الظاهرة ، فكل من البناء

---

(١) ــ د · حسن سعفان : اسس علم الاجتماع · دار النهضة العربية ، القاهرة ٧١ ــ ١٩٧٢ ص ٧١ ــ ٨٠ ·

2 — Ogburn and Nimkoff : «Hand Book of Sociology» p. 493.

3 — Lundberg : «Sociology» P. 523.

والوظيفة هما الحالة التى يكونان عليها فى أى موقف معين بسبب ظروف الحياة (طبيعية أو اجتماعية) التى من أجلها وبسببها يحيا النظام · وربما ظهور اصطلاح (بناء ــ وظيفة) فى علم الاجتماع صمم ليؤكد هذه الحقيقة وهى أنهما وجهان لشىء واحد تطلبته الحياة · ان كان كذلك فهذا يؤكد ويوضح أن أى دراسة علمية فى علم الاجتماع هى بالضرورة بنائية وظيفية (١)
. Structural fanctional

1 — Ogburn and Nimkoff : «Hand Book of Sociology» P. 493.

بنـــاء النظـــام

STRUCTURE OF INSTITUTION

وبناء النظام الاجتماعى له اهمية قصوى فهو الذى ينفـــذ الوظائف النظامية . ولقد اختلف علماء الاجتماع حول ماهية بناء النظام ، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع تسميته عناصر النظام أى العناصر التى يتكون منهـــا بناء النظام ، الا أن معظم علماء الاجتماع اتجهوا الى الأخذ بوجهة نظر عالم الاجتماع سمنر Sumner الذى يرى أن بناء النظام يتكون من هيئة Personnel ومعدات أو أدوات Equipment وتنظيم Organaization وشعائر Ritual (1) ويعرض عالم الاجتماع أوجبرن وجهة نظر سمنر فى الكلمات الآتية (نعنى بالهيئة الأعضاء الأكفاء للجماعة ، بمعنى أولئك الذين تعرفهم الجماعة على أنهم المنتمين للنظام وكمعارضين للخارجين ، فكرة الشرعية بينما تســـتعمل بصفة عامة فيما يتعلق بالأسرة الا أنه واقعيا يستمسك بها من أجـــل النظم الأخرى أيضا ، لأن كل النظم تميز بين الأعضاء الشرعيين وأولئك الذين هم غير شرعيين ، وقصد سمنر بالمعدات ، الأجهزة والآلالات Opparatus التى يستخدمها الأعضاء فى أداء وظائفهم ، فهى كل ممتلكات الجماعة ، كل من المادى واللامادى • فمثلا فى حالة الأسرة المعدات المادية قد تتضمن الأرض والمنزل ، والأدوات المنزلية ، وتختلف الممتلكات المادية باختلاف الثقافات • قد تشتمل الممتلكات اللامادية للأسرة على اسم الأسرة وسمعتها ومكانتها • وتنظيم نظام ما ، هو الحالة التى رتبت فيها هيئته ومعداته ، مثـــل الأسرة البطرياركية يسود فيها الاب والأسرة الأمومية تسود فيها الأم•وأخيرا الشعائر لنظام اجتماعى تتكون من عاداته والقواعد والحفلات التى تنظم الســـلوك

---

1 — Summer : Folkways, P. 53.

النظامي للأفراد، فمثلا هناك شعائر محددة لتشكيل أسرة مثل حفلة الزواج ، كما أن هناك طقسا خاصا لفك الزواج وهو الطلاق) (١) ٠

والآن نتكلم بالتفصيل عن كل عنصر من عناصر النظام :

هيئة النظام
PERSONNEL

نعنى بهيئة النظام أولئك الأفراد الذين يمارسون عمليات النظام وينتسبون اليه اجتماعيا ، فالمدرس مثلا ينتسب الى النظام التربوى ، ولذا يحمل اسم دور رئيسى فى النظام وهو المدرس ٠ فالمناشط الأكثر تخصصا فى نظام ما يقوم بها الممارسون Functionaries الذين يشغلون المناصب Offices فى النظام ، والمنصب النظامى يتكون من مجموعة محددة من الحقوق والواجبات فهو مكانة اجتماعية ودور يضع على عاتق شاغله واجبات معينة وفى نفس الوقت يعطيه الحق فى مباشرة بعض الوظائف ،وهى ثابتة لشخص شاغل المنصب ، ولكن لها قابلية النقل لشخص آخر ببعض الأساليب المقبـــــولة اجتماعيا ٠ هذا لا يعنى أن أبا مثلا فى النظام الأسرى يمكن أن يحل محله أب آخر فى الأسرة بسهولة أو تماما لأن الاتصال الشخصى والعلاقات العاطفيـــة تصبح عظيمة فى مثل هذا النظام ٠ ولكن فى نظم أخرى يمـــكن أن يتغير الممارسون بسهولة أكثر ، مثل المدرس فى النظام التربوى ممكن أن يحـــل مكانه مدرس آخر ، وهذا يحدث فى معظم النظم الأخرى ٠

ولهذا ينظر الى المناصب فى النظم على أنها لا شخصية من ناحيتين : الأولى أن المنصب أقدم من الفرد الملقى على عاتقه القيام به كما أنه متوقع أن يعيش المنصب بعد الشخص ٠ ثانيا ، كل من ألقى على عاتقه الدور يتوقع منه أن يسلك داخل حدود معينة كما كان يفعل سابقوه ٠ ويلاحظ أن المنـــاصب الشعائرية Ritual Offices هى لا شخصية أكثر ، اذ يتكلم الملقى على عاتقه

---

1 — Ogburn : Op. Cit., P. 265—366.

مثل هذا الدور بعبارات موضوعة ليس حرا فى تغييرها ، مثل رجل الدين · ويحكم على الشخص شاغل المناصب بتوقعات المنصب ، فطالما هو متطابق معها فهو بعيد عن النقد الشخصى ·

ولا يعنى ذلك أن تلك الأدوار أو المناصب ليس لها الوجه الشخصى على الاطلاق ، ولكن فى الحقيقة هناك ناحية شخصية تظهر فى هذه المناصب ، اذ أن ملء المناصب يتطلب اثبات الذات الواعية للدور،فالمنصب هوجزء من خبرات الشخص ، كما أنه قد تتحد مع الدور عواطف عميقة ، كما أن الشخص قد يغير صفات المنصب بأسلوبه فى أدائه لدوره (فليس كل شخص ممارس فى بناء اجتماعى لنظام ما له نفس السلوك مثل كل شخص آخر يؤدى نفس الدور ، فمعظم حياته الاجتماعية تقع خارج السلطة المباشرة لنظام اجتماعى واحد ··· وهكذا كل منا يحضر شخصيته فى أى جماعة يشارك فيها · فكلنا قد نتطابق مع سنن النظام الرئيسية ، ولكن سلوكنا قد يختلف فى كثير من طرائقه الصغرى · فمن الواضح أن امرأتين كوالدتين قد تسلكان سلوكا مختلفا تماما خلال هذا الدور) (١) ·

كما أن هذه الأدوار (المناصب Offices)) تختلف من ناحية الفرصة التى تتيحها للممارسين من ناحية المبادأة الشخصية،وأيضا فى كمية المسئولية الملقاة على عاتق الممارس لتحقيق النتائج · فمثلا يتمتع ملك انجلترا بمقام كبير ، ولكنه لا يضع السياسات للدولة ، بينما رئيس الوزراء له مقام أقل ولكن يتوقع النظام السياسى منه أن يحقق نتائج هامة للنظام · وان كان كل من الملك ورئيس الوزراء يعتبران من هيئة النظام السياسى ·

وعند هذه النقطة أحب أن أقدم تمييزا هاما آخر ، فهناك نموذجان من الأفراد يعملون فى النظم ويتأثرون بها ، هؤلاء هم المنتجون والمديرون · حيث يعمل المنتجون عمل النظام ، بينما يدير المديرون النظام متضمنا المنتجين ·

---

1 — Young and Mack : Op. Cit., P. 339.

ويلاحظ أن هناك طبقات فرعية كثيرة تحت كل من هاتين الطبقتين ، والمنتجون هم العلماء المتخصصون ، أما المديرون فهم المراقبون أو رؤساء العمل · أما الطبقات الفرعية تحت المديرين فهم من السكرتيرين الى السعاة ، وهذا ما يسميه فبر Weber الرئيس وموظفوه الاداريون · هذه الطبقات هى نتيجة احتياجات العمل ، ومن ثم فهى اقتصادية ، اذ أن بعض المهارات نادرة عن الأخرى ، ولهذا فلا بد أن تكون مكافآتها أحسن ·

المنتجون هم الرجال المهنيون ، منهم الفنانون والعلماء والأطبـــاء والمهندسون ، أولئك الذين بتدريب مهنى ينجزون بعض الأعمال التخصصية المطلوبة ، وفى معظم الحالات لهم خبرات فنية عالية · بينما يشكل المديرون تلك الطبقة التى أصبحت ذات ميزة كبيرة حديثا فقط · فهم الرجال النظاميون تماما · فهم يديرون النظام أكثر من انجاز وظائفه ، فمثلا مدير المستشفى لا يعمل على علاج المرضى ، ورئيس الجامعة لا يدرس ، وعضو مجلس الادارة فى شركة لصناعة السيارات لا يصنع السيارات · ولكن أصحاب هـــذه المناصب Offices بدونهم لا يمكن أن توجد العلاقات المتداخلة المحكمة الدقة فى النظم الكبيرة فى المجتمعات الحديثة المعقدة ·

مما يساعد على فهم النموذجين من رجال النظـام أن نقابلهم ببعض : المنتجون أو المهنيون مرتبطون بأعمالهم · فهم لا يمكن استبدالهم بغيرهم ، كما أنهم لا يستطيعون عمل شىء آخر ، ولكنهم بالطبع لا يقـدرون بثمن ، (فهم يستمدون مستقبلهم وحياتهم من النظام ، ويفسرون معنى حياتهم فى مفاهيم من قيمة النظام للمجتمع ، ويحملون الجسم الرئيسى من التقاليد والأساليب الفنية) (١) · فالجوهر الضرورى لجامعة كبيرة هم المنتجون الأذكيـــاء أى المعلمون ، وقلب المستشفى هو الطبيب الماهر .

ولكن لنتأمل ، فى مقابل هؤلاء الرجال وأدوارهم : المديرون الذين هم

---

1 — Hughes : Op. Cit., P. 262.

الرجال النظاميون فهم الى حد كبير قابلون للاستبدال · فرئيس نظام ما يمكن أن يدير نموذج آخر من النظم · فمثلا رئيس جامعة لن يجد صعوبة كبيرة أو وقتا طويلا لادارة مستشفى · لأن المشاكل سوف تتشابه الى حد كبير وبعيد · فهيئة الادارة تراقب الميزانية ، وتقود عملية المحافظة على المبانى والاضاءة بكفاءة · هذه الوظائف لا تتغير كثيرا من نظام الى نظام · ولكن ليست الحالة كذلك بالنسبة للمنتجين والمهنيين ، فعمليات الانتاج تختلف من نظام الى نظام· أى أن المنتجين محددون بالنظام بينما المديرون يمكنهم التنقل بين النظم ، ولا يعنى ذلك أن دور المديرين ليس ملتصقا بالنظام ، بل على العكس فدور المدير هو أكثر التصاقا بالنظام ، بل لو أمعنا الفكر أكثر لتبين لنا أن دور المدير هو من صنع النظام · فعندما كانت الثقافات غير معقدة ولم تكن تقدمت الى هذه النقطة التى نمت عندها النظم نموا عظيما لم تكن هناك حاجة الى دور المدير ، فلم يكن هناك ما يسمى رجل نظام · هذا الدور وهذه الطبقة نشأت كنتاج لتعقد وتضخم النظم ولم تكن موجودة قبل ذلك ·

وعلى هذا الأساس فانى أعتبر أن هيئة النظام هى فقط أولئك الأفـــراد الذين يكسبون حياتهم منه والذين يعطونه أكبر جزء من وقت عملهم ، والذين ينتسبون الى النظام اجتماعيا · (وأى تغير أساسى فى أى فئة من هذه الفئات من الأشخاص سوف تؤدى الى تغير فى النظام) (١) ·

وعند هـــذه النقطـــة يلزم التمييز بين رجل النظام الضرورى أى الممارس Functionary ورجل النظام الطارىء أى المشارك Participant ولقد عرفنا الممارسين فى الفقرة السابقة ، أما رجـــل النظام الطارىء أو المشارك ، وهو الذى حدث وان كان النظام ـ لسبب أو لآخر ـ ميدانا لاهتمامهم· اذ كثيرا ما (تشارك فئات عديدة من الأشخاص فى نظام أو على الأقل لهم علاقات أحيانا مع النظام) (٢) فمثلا المدرس هو ممارس فى النظام التربوى

1 — Hughes : Op. Cit., P. 262
2 — Ibid., P. 261.

ولكن مشارك فى النظام السياسى عندما يدلى بصوته فى الانتخابات أو عندما يتابع عمل الحكومة عن طريق وسائل الاعلام ، وبالمثل المهندس ممارس فى النظام الصناعى ومشارك فى النظام القضائى عندما يكون له قضية مطروحة فى المحاكم ، وأيضا يكون مشارك فى النظام التربوى عندما يكون له أبناء فى المدارس ، ومشارك أيضا فى النظام السياسى • وهذه النقطة توضح أيضا مدى التشابك بين النظم ، اذ أن عضو المجتمع ولو أنه ممارس فى نظام من النظم الا أنه مشارك فى معظم النظم الأخرى ، أى أن عضو المجتمع قد يؤدى أكثر من دور فى أكثر من نظام •

وهذه النقطة توضح لنا الطبيعة التجريدية لفكرة هيئة النظام فعندما نتحدث عن هيئة النظام بالطبع يكون فى عقولنا الأفراد البشريين ولكن ليس كل الفرد البشرى وانما فقط قدرة معينة فيه ، أى وظيفة معينة فيه والتى قد تطلب أولا تنمية • فهيئة النظام هى اصطلاح تجريدى تماما مثل اصطلاح النظام نفسه • وما يؤيد هذه النظرة هو عدد النظم التى يعد فيها نفس الكائن البشرى من بين الهيئة العاملة ، فمثلا يمكن أن يكون رجلا معينا مهندسا فهو ممارس فى النظام الصناعى ، ودافع ضريبة ، وعضو فى مجلس ادارة جمعية خيرية وأب ، فهو مشارك فى هذه النظم جميعا .

وهكذا عمل الانسان كجزء من هيئة نظام معين ، هو وجه واحد فقط لنشاطه المختلفة • ذلك يعنى أن هناك نظاما ينتمى اليه الانسان أوليا ويصبح هذا النظام نظامه وينتمى اليه اجتماعيا ويشعر بعضويته فيه عن أى نظام آخر ، ويعمل له أكثر من أى نظام ، ويكون ولاؤه لهذا النظام وله معه علاقات عاطفية • أما عضويته فى النظم الأخرى فهى مشاركة عرضية
Occasional participation

وهناك نوع آخر من المشاركة تعرض حالة أقوى لمعنى التجريد وهى المشاركة الغائبة • قد يكون رجل مديرا لعدد من المؤسسات ، ولو أنه لا يكون حاضرا

فى أى منها · أو قد يكون مالكا أساسيا لمؤسسة ولكن لا يعمل فيها ، فى كل من الحالتين ينجز هذا الانسان وظائف فى النظام ·

وهكذا نحن نعنى بهيئة النظام أولئك الأفـــراد البشريين الممارسين لعملياته ، والذين يؤثر فيهم النظام وينتسبون اليه اجتماعيا وبينهم علاقات عاطفية وروابط من الولاء للنظام ولقادة النظام ، لم تكن موجودة بينهم لولا أنهم أعضاء فى النظام · كما أنهم يشعرون أنهم أجزاء من بناء هذا النظام ، وتتأثر به اتجاهاتهم وسلوكهم ·

المعـــدات
EQUIPMENT

كل نظام على حده له نوع خاص من المعدات والأدوات التى يستخدمها فى أداء وظائفه : والمعدات فئة كبيرة تتضمن كل شىء صنعه أو يســتعمله الانسان · فكل الثقافات يمكن النظر اليها كتجمعات من قطع المعدات النظامية Institutional Equipments ، ولهذا علينا أن نضم سطح الأرض بل وأيضا مسافة أعلى ومسافة تحتها ، اذ يجلب البترول من أميال تحت سطح الأرض ، وكذلك الهواء على مسافة أميال فوق الأرض · ذلك أن الاستخدام الاجتماعى لأى قطعة من المواد يحيلها الى معدات للنظام · يندفع البترول الى سطح الأرض فى بعض المناطق تلقائيا ، ولكنه يصبح معدات لنظام عندما يستخدمه الانسان وكذلك الجو يصبح قطعة من معدات النظام عندما يستعمل لطيران طيـــارة ليخدم أغراض النقل ·

المعـــــدات هى مـــــادة النظام وممتلكاته ، وهى دائمـــــا بناءات مادية Matirial Structure وذلك لا ينطبق فقط على الحالات الواضحـة مثل البنايات والأدوات ولكن أيضا للأمثلة المادية الأقل وضوحا مثل اللغة ، مادة اللغة هى المعانى التى تحملها رموزها ، ولكن هذه الرموز لا بد أن تكتب

أو تنطق حتى تصبح معدات للنظام • ولهذا نشأ استخدام الورقة والقلم أو المواد الكتابية الأخرى ، أو حتى الموجات الصوتية • ومن ثم فهناك دائما عنصر مادى حتى فى المعدات النظامية الأسرع زوالا •

المصنوعات البشرية المعتبرة معدات للنظم لها علاقات عديدة • فرغم أنها معدات لنظام معين الا أنه فى نفس الوقت لها علاقات خاصة بها مع النظم الأخرى وسوف أستخدم من أجل الشرح مثلين ، سوف أختار نظريات علم الجمال والنظام التشريعى •

المعدات لها ناحية جمالية ، بل ان بعض المعدات تكون مصممة لهذا الغرض الخاص أى تتضمن أشياء فى داخل نظام الفن ، فمثلا أثاث الأسرة هو أصلا معدات النظام الأسرى ، ولكن تصميمه يتضمن أشياء كثيرة من نظام الفن ، ويوضع تحت النقد الجمالى ، وقد يوافق عليه الجماليون أو لا يوافقون فكل ثقافة لها مستويات ذوق خاص بها ، وأيضا الشكل الخاص لمعداتها .

والمعدات من ناحية أخرى لها ناحية تشريعية ، أى لها علاقة بالنظام التشريعى ، فأثاث الأسرة ، عندما نتحدث عنه على أنه ملك للأسرة فنحن نتكلم عن علاقة قانونية ، ويلاحظ أن معظم المصنوعات الانسانية مملوكة فمن ثم لها علاقة بالنظام القانونى • كما أن بيعها أو استبدالها وحمايتها من المعتدين كل هذه علاقات قانونية • فالمعدات مثل أعضاء هيئة النظام من ناحية أنها خاصة بنظام ما ولكن لها علاقات بالنظم الأخرى •

ويلاحظ انه كلما زاد الضبط على البيئة المباشرة كلما زادت المعدات ، وبالتالى زادت نظم المجتمع ، وكلما زادت نظم المجتمع زادت قوته وحجمه ، فما جعل التنظيمات الاجتماعية الاكبر ممكنة هو زيادة كمية وتعقد المعدات المادية • فالدول الكبرى والمتقدمة ما جعلها كذلك الا زيادة معداتها ، وكان لا يمكن ان تصل الى هذا المستوى من التقدم بدون المعدات الحالية مثل الذرة والالكترونيات ومختلف أنواع الطيران •

الاجـراءات Procedures

المقصود بالاجراءات « فعل مطابق لنمط » ، أو طريقة معينة للسلوك الانسانى وتعتبر العادات الاجتماعية والسمات والسنن والشعائر والحفلات والتقاليد أى المعايير من هذا النوع من الفعل طبقا لنمط ، أى من الاجراءات النظامية ٠

وسوف نستخدم هذا العنوان الشامل (الاجراءات) لكل الاسـاليب النظامية للسلوك Institutional ways of behaviour ، لنميز بينهـا وبين الاسـاليب الشـعبية Folkways التى تعتبر أسـاليب ثقافية للسلوك ٠ ولقد كان اصطلاح السنن Mores هو الاصطلاح الاجتمـاعى الاقدم الذى وضعه سمنر لهذا النمط من الأفعال ، أما الاساليب الشعبية فهى تعتبر اصطلاحا انثروبولوجيا ٠ أما الاجراءات التى لمختلف النظم فهى خاصة بهذه النظم ، ويمكن اختبارها بحقيقة بسيطة وهى أنها غير قابلة للتبادل فيما بينها ٠ فما يحدث فى الأعمال التجارية يتاسس كخبرة مقبولة فى التجارة ، ولكن لا يمكن استخدامها مطلقا فى ممارسة الطب مثـلا ، لأن القوانين الاخلاقية فى المهنتين مختلفة تماما ٠ وكذلك ما يمكن أن يكون حسنا فى الطب قد يكون سيئا فى التجارة ٠

اجراءات النظام هى الأساليب التى بها ينفذ النظـام العمليات التى تتطلبهـا وظـائفه الضرورية ٠ فالاجـراءات القـانونية موضوعة لانجـاز القانون ، وتعـلم المدارس الطبية ما هو متوقع مـن الطبيب فى المستشفى وهكذا ، أعنى بالاجراءات الاساليب المعتادة لعمل النظام ٠ وسنجد أن هذه الاجراءات لها على الأقل ثلاث تاثيرات متمايزة على أعضاء النظام ٠

أولا : تقوى الاجراءات النظـامية الاعتقاد ، اذ تجعل من الحـركات الفيزيقية (الجسمية) نتائج تتبع منطقيا من القبول لقضية معينة ، فالسجود أو الركوع فى الصلاة هو تذكرة جسمية للاعتقاد فى الله ٠ فانجاز هـذه الافعال بالاضافة الى الافصـاح عن حقيقـة أن هـذه القضية مقبولة ، فهى فى نفس الوقت تعمل على تقوية الاعتقاد فى القضية ٠

ثانيا : اتباع اجراءات مؤسسة تدمج وتستغرق الفرد فى الاطار الاجتماعى ، فالاجراءات النظامية هى بالطبع اجتماعية ، اذ أنه قد اتبعها الآخرون ، فعندما يأخذ فرد بالحركات الموصوفة فهو ينضم للتأييد الجمعى ، اذ يحصل بمثل هذا الفعل على التماسك أو الخضوع أو الموافقة عما يفعله الآخرون ، وهم بدورهم يؤيدونه • وهكذا باتباع اجراءات النظام يصبح الفرد عضوا فى جماعة ويدمج نفسه أكثر فى مجتمعه • يبدو أن السنن تقول افعل كما نفعل وبهذا تصبح واحدا منا • وفى بعض النظم مثل الديانات المؤسسة تعتبر الشعائر علامة مميزة للعضوية ، فالعادة الاجتماعية أو الشعائر هى اعلان واضح من فرد عن عضويته فى جماعة •

ثالثا : يعطى اتباع الاجراءات شكلا للفعل ، اذ تكون هذه الاجراءات دائما عقلية ، بمعنى أنها اتبعت لأسباب ، وحتى عندما تكون قد نسيت الأسباب يظل شكل الفعل كما هو فغالبا ما تكون القصة الكامنة وراء الأسباب غير حاضرة فى الذهن • وهكذا تمكن الاجراءات النظامية أولئك الذين يتبعونها من مباشرة حياة منظمة ، حتى ولو كان منطق مثل هذه الاجراءات غير مفهوم كلية • فكم من أولئك الذين يتبعون ارشاداتنا القانونية يعرفون أى شىء عن « لماذا يتوقع الناس منهم ان يفعلوا باسلوب معين » • واذا نظرنا الى المسألة من ناحية أخرى ، نرى أن العادة الاجتماعية ليست قانونا مسنا • فالتحية العسكرية والسلام اليدوى الاجتماعى وخبرات لا حصر لها لا يمكن تفسيرها بالدقة على الاطلاق ، حتى لو سألنا الملايين الذين يأتونها يوميا ، ولكنهم يستعملون النمط للحياة الاجتماعية كما هو وكما رأوا أسلافهم يأتونه •

اعطاء الشكل للفعل بواسطة الاجراءات النظامية تحول المجرد والمبهم الى متماسك وملموس • هذه النقطة وان كانت غير مختلفة كثيرا عن السابق ذكره الا انها تستحق شيئا من التفصيل •

فعلاقة النظرية بالتجريب واضحة جدا فى الاجراءات النظامية • ما نحن معتادونه يفيدنا ، كما أنه منغرس جدا فى طبيعة الاشياء ، ولهذا أعضاء

ثقافة معينة يعتبرون خبراتهم الثقافية معايير وكل ما عداها مبتذل أو حتى انحرافات لا اخلاقية • ولهذا عندما يصبح نظام معين قديما فهو يباشر ثقلا معينا من التأثير على الأفراد الذين يقعون فى دائرته ، ذلك بفضل حقيقة ان نفس الأفعال قد أوتيت لمدة طويلة بنفس الطريقة • عندما نستخدم اصطلاح (قدستها التقاليد) ما نعنيه هو أن الفعل بهذا الشكل صالح لأنه قبل لمدة طويلة وهو صادق لاعتقاد أجيال كثيرة فيه • فمثلا فى انجلترا اشتق القانون من التقاليد الاجتماعية • وهكذا تكون النظم قوية جدا عندما تصبح قديمة جدا •

وعندما تكون المهارة أو الشكل متضمنا فى الفعل الاجتماعى ، فان ذلك يعنى تحول التقاليد الى الوسائل الفنية • هناك مفهوم يعتبر ان كل التقاليد ما هى الا صياغات ، بمعنى ان كل الآراء يمكن أن تصبح أفعالا ، ولهذا تتضمن التقاليد أصلا وأساسا تلك الآراء التى كانت أكثر نجاحا فى العمل والتى استخدمت فى العمل بنجاح أطول مدة واحتفظت بها معظم الاجيال •

التنظيم Organization

التنظيم لنظام هو الاسلوب الذى يضعه معا جماعة من الاشخاص مع أدواتهم وقواعدهم للسلوك ليتمكنوا من العمل نحو هدف رئيسى • فمثلا اذا اعتبرنا النظام هو النظام السياسى مثلا ، فهو بناء من الرجال والاجراءات والمواد ويقصد انتاجا معينا وهو : رخاء المجتمع ، وبالمثل اذا اعتبرنا النظام مصنعا فهو بناء من الرجال والمواد والاجراءات بقصد انتاج سلعة معينة • فليس المهم ما اذا كان الانتاج شيئا ماديا أو معنويا (لا مادى) • كنا نتكلم عن المعدات ، والآن يمكن أن نعنى بها الآلات والخامات المادية فى المصنع وكنا نتكلم عن الاجراءات والان يمكن ان نعنى بها لوائح المصنع وعملياته وكنا نتكلم عن الهيئة والان يمكن ان نعنى بها العاملون • ويمكننا أن نضيف كلمة وصفية لمصير الانتاج النهائى وهو التوزيع • الشىء المراد التأكيد عليه هو أن التنظيم لنظام ما لا يمكن ان يوجد حيث لا سبب هناك يدفع عناصره

للعمل معا ، والسبب دائما هو هدف النظام ، وهذا الهدف يقع دائما وراء النظام نفسه ، لأن النظام بأسلوب ما يخدم المجتمع الذى هو جزء منه ٠

واحد المهام الرئيسية لتنظيم النظام مثلا ، هو العدد الأنسب من عناصر النظام ، وان كان نظريا يقال ان هذا العدد يقرره دور ووظيفة النظام ، ولكن النظم الحديثة معقدة الى حد أن هذه المسألة أصبحت الشغل الشاغل للمنظمين والدارسين ، فكل نظام لابد أن يكون له حجم طبيعى ، عدد أمثل من الهيئة وأيضا من المعدات والاجراءات التى تشكل النظام ٠ وتنظيمه ، ولكن اى تنظيم ، فمثلا فى مصنع هل الانسب جعل عملية صيانة المعدات فى مكان واحد او توزيعها على عنابر الانتاج اى يكون لكل عنبر ورشة صيانة خاصة به ٠ هل الأنسب جعل الادارة التجارية والادارة المالية معا أم كل على حده ؟ مثل هذه المشاكل هى وظيفة التنظيم للنظام بهدف الوصول الى التنظيم الأنسب لتسهيل العملية الانتاجية اى تحقيق وظيفة النظام ككل ٠

ومن ناحية أخرى كيف تسلك العناصر معا عندما يكون كل منهم يؤدى وظيفته ؟ يتوقف التنظيم فى داخل نظام على انساق مجسمة من الافكار ، ولكن انساق الافكار لا تخرج تماما كما يتوقع المخططون ولهذا يغيرون بعض الشىء فى الشكل عند تطبيق الافكار ، ولكن لماذا ؟ ذلك يرجع الى أجزاء ومكونات البيئة الداخلية للنظام وتأثيراتها ، تأثيرات من العسير عزلها أساسا بسبب انها ببساطة لا توجد فى انعزال فهى قيم استدعتها الى الوجود وظيفة العناصر ٠ ومن ثم فهناك فى النظام صفات البيئة الداخلية ، ويمكننا أن نذكر بعضا منها ، الأمن والولاء والتسهيل للعملية ، فمن الضرورى ان يكون الميكانزم لترتيب هذه المتغيرات مبنيا بحزم ودقة فى التنظيم للنظام ٠

كما ان النظام يتكون من أجزاء ، وعمل التنظيم هو احداث هذا التوافق، وكلما حسن التوافق بين أجزاء النظام كلما اتصفت العناصر بالتنظيم ككل ووصل النظام الى حالة من الاستقرار والثبات ، فكل من الثبات والاستقرار يعتمد على حسن تنظيم وظائف الاجزاء فى الكل ٠ فالاستقرار هو صفة الأنساق ٠ ككل وليس صفه لأى جزء منها ، فقد يتضمن الثبات لبعض العناصر

تغيرا للآخرين • فالنظام نسق من المتغيرات يعتمد استقراره على حفظ مثل هذه المتغيرات فى داخل حدود ممكنة وتلك وظيفة التنظيم • وهكذا يكون النظام متوائما بمعنى محاولة البحث عن تلك الحدود فى داخل البيئة ، وهذا معنى التوافق بين عناصر النظام ، فمن ثم لابد لعناصر النظام أن تكون ذات مرونة كافية لتؤمن الحفظ للمتغيرات الضرورية اللازمة فى داخل حدودها الممكنة •

التصنيف

وقبل أن أختم حديثى عن النظم الاجتماعية أحب أن أعرض احدى المسائل التى مازالت تعتبر من أهم مشاكل علم الاجتماع والانثروبولوجيا وهى مسألة تصنيف النظم الاجتماعية • ورغم أهمية التصنيف للدراسات العلمية اذ أنها احدى العمليات التى تدفع بالعلم قدما ، الا ان علماء الاجتماع والانثروبولوجيا حتى الان لم يتفقوا بعد على تصنيف للنظم الاجتماعية • ومن ثم فمازالت هذه المسألة احدى المشاكل التى يواجهها علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، والتى لم يتعرض لها الا القليل ممن حاولوا وضع تصنيف للنظم ، وما عرضوه لم يصادف قبولا عاما عند دارسى الاجتماع والانثروبولوجيا ، اذ وجهت الى هذه الدراسات كثير من سهام النقد •

وفى الحقيقة ان مشكلة التصنيف فى كل علم من المشاكل التى تحتاج الى جهد فائق وعمل متصل فى دراسات جادة متعمقة حتى يمكن للباحث الوصول الى تصنيف قد يصادف قبولا • وهذا مادعى كثيرا من علماء الاجتماع الى الميل نحو اما ترك هذه المشكلة كلية ، أو اللجوء الى الأسلوب الذى اتبعه سمنر Sumner رائد هذا الاتجاه ، مع اختلاف وجهات النظر حول الأسس التى قامت عليها تلك الثنائية •

وقد أقام سمنر ثنائيته على أساس أن النظم الاجتماعية (اما أن تنمو أى تتزايد Crescive أو تسن أى تشرع Enacte تكون نامية عندما تأخذ شكلها فى المعايير ، وتنمو عن طريق المجهودات الفطرية التى ولدت ونتجت بها المعايير ، حيث تصبح المجهودات خلال الاستعمال الطويل محددة ومخصصة • الملكية والزواج والدين أهم النظم الأولية ، لقد بدأوا فى الاساليب الشعبية • ثم أصبحت عادات اجتماعية ، ثم نمت الى معايير عن طريق اضافة شىء من فلسفة الرفاهية مهما كانت فجة • ثم ازدادت تحديدا وتخصصا للقواعد والافعال المقررة واستعملت المعدات فانتج ذلك بناء واكتمل النظام • أما النظم المسنة فهى نتاج الاختراعات العقلية والانتباه وهى تنتمى الى الحضارات الراقية) (١) •

---

(1) Sumner : Folkwaye. P. 45.

ويلاحظ أن سمنر فى خلال حديثه عن النظم النامية أى غير المقصودة اطلق عليها اصطلاح آخر اذ سماها بالنظم الأولية ، ولقد استخدم هذا الاصطلاح كثير من علماء الاجتماع فى التصنيف على ما سنرى ، وايضا فى ثنايا حديث سمنر عند التفرقة بين النظم والمعايير استخدم اصطلاحا آخر اتخذه بعض علماء الاجتماع أيضا أساسا للتصنيف الثنائى ، وهى فكرة الاختيارية والجبرية فهو يقول (الفرق الكبير هو أن النظم الاجتماعية والقوانين لها صفة ايجابية بينما المعايير غير محددة • هناك فلسفة متضمنة فى الأساليب الشعبية وعندما تصبح جلية واضحة تصبح فلسفة عملية ••• أما الأفعال فى ظل القانون والنظم الاجتماعية يشعر بها الفاعل ويؤديها بوعى واختيارية ولهذا فهى لها صفة الضرورة ، وفى ظل الأساليب الشعبية الافعال دائما بلا وعى وغير اختيارية) (١) •

ولقد استخدم هيوز Hughes فكرة الاختيارى والاجبارى فى تصنيفه للنظم (فالنظم الاختيارية هى تلك النظم التى يكون الشخص فيها حرا فى المشاركة أو لا كما يختار • النظم الأخرى الاجبارية يتوقع من الشخص المشاركة فيها أو يجبر على ذلك • يكون الطفل بالضرورة جزءا من الاسرة ، ولقد يتبرأ منها فيما بعد أو يهجرها وان كان بثمن عاطفى باهظ • المدرسة نظام اجبارى عند فترة معينة • يدين كل الأشخاص بالولاء وبعض الواجبات للدولة • وبعض النظم تكون اختيارية بأسلوب معين • فقد لا يشارك فيها الانسان ، ولكن ممارسته لهذه الحرية قد تكون باهظة التكاليف اجتماعيا • ليس على الناس أن يعملوا فى المصانع ولكن قد لا يكون هناك اسلوب آخر للحصول على الغذاء ، ورجل اعمال حر فى أن يتجاهل الواجبات الأخوية والنوادى والكنائس ، ولكن فى فعله ذلك قد يعرض موقفه للخطر • وهكذا ممارسة الحرية بالنسبة للنظم تخضع لكثير من الجزاءات) (٢) •

ولقد استخدم ميرل Merrill أيضا فكرة الاختيارية فى تصنيفه للنظم ولكنه هنا اقامها على مبدأ حقوق النظم على الأفراد وهو يعنى به مدى

---

(1) Ibid., p. 56.

(2) Hughes : Op. Cit., 257.

ولاء الأفراد للنظم ، (فالنظم الاجتماعية تختلف فى حقوقها على الأفراد بعض النظم اجبارية ، بمعنى أن الشخص ليس له خيار فى عضويته فيها • والاسرة الأبوية أصدق مثل على النظام الاجبارى ، لأن الطفل ليس له خيار فى مشاركته • ومن ناحية أخرى النظام الاقتصادى له صفة اختيارية ، فالفرد حر فى اختيار مهنة أو عمل ما أو صناعة ما ، داخل حدود ، فليس له قوة الابتعاد عن الانماط الاقتصادية الواسعة فى مجتمعه ، مثلا ، لا يستطيع الفرد استعمال الشيوعية فى مجتمع رأسمالى • المشاركة فى الحكومة أيضا هى اجبارية ، والشخص له حقوق معينة وعليه واجبات نحو الدولة التى ولد تحت علمها • المشاركة فى النظم الاساسية اجبارية أكثر منها اختيارية ••• وحقوق النظم على أعضائها تعرف أيضا باسم الولاء ، وللافراد اتجاهات مختلفة نحو مختلف النظم فى بيئتهم الاجتماعية ، فعادة الولاء للأسرة قوى) (١) •

أما بارنز Barns فقد أخذ عن سمنر فكرة النظم الأولية Primary Institutions والنظم الثانوية Secondary Institutions فهو يعتبر (النظم الاجتماعية الأساسية أو الأولية هى بدائية وتلقائية فى أصولها ونموها متبعة العملية التى وصفها سمنر • هذه النظم هى مثل الاسرة والملكية والحرف الأساسية والحكومة • وبنمو الحضارة نمت النظم الثانوية بصفة متعمدة • وهذه عادة نظم فرعية فى داخل الحقل الكبير للنظم الاجتماعية الأولية • فمثلا الحكومة نظام اجتماعى أولى نشأ تلقائيا ، ولكن الجمهورية هى شكل عمدى من الحكومة ونظام اجتماعى ثانوى • والملكية نظام اجتماعى أولى له تراث تطورى طويل بينما طريقة التركات نظام ثانوى) (٢) •

ولقد استخدم شابين Chapin أيضا فكرة الثنائية فى التصنيف ولقد اقامها على أساس مبدأ آخر وهو مدى انتشار النظام ، أو بمعنى آخر على أساس فكرة المنطقة الاجتماعية Sociological Zone ـ ١ ـ نظم نووية Nucleated Institutions التى لها موضع محدد ومخصصة فى منطقة •

(1) Merrill : Op. Cit., p. 336—337.
(2) Barns : Op. Cit., p. 32.

مثل حكومة محلية ، وتنظيم سياسى محلى ، وأى أسرة تعيش معا وأى مدرسة معينة ، وأى هيئة رفاهية محلية ، ـ ٢ ـ نظم رمزية منتشرة Diffused-symbolic Institutions التى تناقض المحلية السابق ذكرها • وتشير الى رموز لها تنظيم عالى من التجريد ، ويتميز بمثل هذه الكلمات الفن والعلم والقانون) (١) •

ويقول نادل : للحديث بدقة عن التصنيفات ، ليس هناك صواب أو خطأ ، ولكن فقط أقل أو أكثر ملائمة • هذا يعنى (أولا) عمليا ، التصنيف سوف يعنى أن هناك ما هو أكثر أو أقل اقتصاديا • فاذا كانت فئاتى واسعة جدا (اقتصادية ـ سياسية ـ قانونية) ، سأقدم تقسيمات فرعية ، والتى لهذه الأسباب سأشرحها بعناية ، واذا كانت فئاتى ضيقة جدا سأعمل حساب العلاقات الرابطة للظاهرة التى فصلتها • (ثانيا) يمكن ان تستفيد التصنيفات من السمات التى تؤكد انها أكثر أو أقل أهمية أو خطورة بمعنى انها يمكن ان تنظم مادة الموضوع فى نسق على أساس السمات • فى كلمات أخرى الحكم على المطابقة أو السداد المتصف به أى شكل من التصنيفات يبرهن على مدى ثرائه أكثر أو أقل عند العمل به لكشف أو شرح العلاقات المتداخلة بين الظاهرة • ولهذا كل التصنيفات متعمدة وتعسفية وتلمسية • هنا أنا لا أشير الى اكتشاف حقائق جديدة قد تجبرنا على تنقيح فئاتنا ، ولكن بالأحرى أشير الى الأساليب الجديدة للنظر الى الأشياء •••

كل التصنيفات بهذا المعنى تكون عملت بحق الشفعة ـ أى أن اقترابها أو تضمنها لجزء من الظاهرة يعطيها حق ضمها لفئتها ـ بذلك نكون اكتشفنا نظرة جديدة الى الاشياء ، وهذه كما قلت قد تكون هامة فى تنظيم وفهم مسائل موضوع التصنيف • ولكننا لا نكشف طبيعتها الحقيقية (لأنه ليس هنا شىء كهذا) •

هذه هى قائمتى للنظم الاجتماعية • ولقد قلت ما فيه الكفاية عن طبيعة التصنيف ، ولا أرمى الى مقارنة قائمتى مع الأساليب المختلفة فى تصنيف

(1) Chapin F. S. : «Contemporary American Institutions», Harper, 1935 p. 16.

النظم التى اقترحها غيرى من الدارسين • ولهذا يلزم اضافة ملاحظة وهى أن معظم الاصطلاحات هى شروح ذاتية •

النظم العملية Operative

النظم التنظيمية Regulative

جسدى Somatic

اقتصادى Economic

ترفيهى ـ جمالى Recreational-aesthetic

علمى Scientific

دينى	Religious
تربوى	Educational
سياسى	Political
قانونى	Legal
قرابى	Kinship

اصطلاح جسدى Somatic قصد به توضيح كل نماذج العمل المقننة التى تعمل اهدافها خاصة على نواحى وحقائق الوجود الفيزيقى (الجسمى) مثل الجنس والعمر ومعالجة الأمراض والختان وما شابه ذلك • كل من الاصطلاحين العملى Operative والتنظيمى Regulative لا يمليان تقسيما حادا بين فئتان من النظم الاجتماعية ، ولكن انتقالا تدريجيا من واحد الى الآخر • أى فئة Class من النظم الاجتماعية هو فقط أكثر أو أقل عمليا أو تنظيما (١) •

وهناك بعض المصطلحات تسمى بها النظم الاجتماعية ، وقد يتبادر الى الذهن أنها نوع من التصنيفات ، ولكنها فى الحقيقة مصطلحات تتعلق بأنواع النظم أو بصفة من صفاتها ، فمثلا هناك نظم عامة فى المجتمع يمارسها كل أعضاء المجتمع كالنظام الاقتصادى والنظام السياسى ، بينما هناك نظم اجتماعية تسود فى مناطق محدده من المجتمع ولذلك تسمى نظم محلية كنظام الثأر فى بعض القرى النائية ويلاحظ أن هذه التفرقة تقوم على أساس مدى عمومية النظام ، وهناك نظم تقوم التفرقة بينها على أساس ممارستها أما

(1) Nadel : Op. Cit., p. 129—136.

بصفة دائمة أو بصفة مؤقته فمثلا النظام الاقتصادى يمارس بصفة دائمة على مدار السنة ، بينما هناك نظم لا تمارس الا فى أوقات محددة من كل عام ، فاذا حل هذا الموعد ظهر النظام ومارسته هيئته مثل الموالد والمواسم الدينية ، ولذلك تسمى نظم دورية أو تكرارية لأنها تتكرر فى نفس الموعد من كل عام • وهناك نظم تظهر على فترات غير منتظمة ولا محددة ، بل تظهر اذا مااكتملت عناصر النظام، مثل نظام الزواج ، فبمجرد التقاء الشريكينوالاتفاق على الخطبة يبدأ نظام الزواج فى الظهور ويمارس حتى تتم بقية العناصر وهى المهر والخطبة والحفلة ، فيكون النظام قد أدى وظيفته ، ويعود مرة ثانية الى الكمون بمعنى أنه لا يزول من المجتمع ولكنه موجود ومعترف به من المجتمع ، ولكنه يكمن فى انتظار الظروف والملابسات التى تتيح ممارسته مرة ثانية وهكذا ولهذا تسمى نظم كامنة أو عارضة •

ويلاحظ أن هذا التقسيم ليس جامدا • (فالفرق بين النظام العارض والنظام الدائم مثلا يعتمد على وجهة النظر • فمثلا المحكمة فى المجتمع الحديث يمكن ان يقال انها تمارس بصفة دائمة بالنسبة لكل المجتمع ، وذلك باستمرار قيامها بالعدالة ، ولكنها بالنسبة لأولئك الذين يدخلون المحكمة فى حوادث قانونية يكون النظام عارضا بالنسبة لهم • ونظام مثل نظام الكنيسة ربما يعرض كل هذه الأنواع • فالكنيسة تعتبر منظمة تشرف على الاخلاق والمسائل الروحية وهى بهذا تعتبر نظاما دائما ، وبعض عملائها يعتبرون عارضين فى حالات الصلاة أو الاعتراف ، بينما الآخرون يعتبرون تكراريين مثل صلوات الأحد والأعياد •

ويمكن ان يعتبر النظام عارضا بمعنى آخر ، ذلك عندما يكون الأفراد أحرارا فى استعمال النظام أو عدم استعماله حسب رغبتهم ، ومجتمعنا مملوء بكثير من هذه النظم • ويمكننا أن نطلق عليها النظم البديلة أو النظم الحرة ، فى مقابل النظم الأخرى التى يطلق عليها نظم اجبارية) (١) •

بل ان النظام الواحد قد يعرض كل هذه الأنواع أيضا عن طريق عناصره فالمعروف أن نظام الزواج مثلا يتكون من عناصر ، (بعضها عارض

---

(1) Nadel ; Op. Cit., p. 120.

ولهذا يظهر عدم انتظام فى الحدوث مثل العناية بالنسل أو الطلاق ، وبعضها تكرارى مثل الزيارات الدورية للأقارب المطلوبة من الزوجين فى مناسبات معينة كالأعياد وكذلك بعضها دائم مثل العلاقات الجنسية وتقسيم العمل)(١) ٠

الهدف الأولى للنظام

THE PRIMARY PURPOSE

لقد عرفنا أن النظم الاجتماعية هى أساليب فى التفكير والعمل شيدت لاشباع الحاجات الأساسية لأعضاء المجتمع ٠ وفى الحقيقة أن ما يحفز المجتمع لانتاج هذه الأساليب هى المشاكل التى يصعب حلها ، وهكذا تشيد النظم فى المقام الأول للتعامل مع المخاطر التى يواجهها المجتمع ، والتى تؤدى الى الاحساس بضرورة الحصول على أسلوب ما ليعمل على ايجاد حل ٠ وبقبول تلك النظم كحلول تأخذ تدريجيا مكان المشكلة غير المحلولة ، ولهذا تختفى المشكلة نفسها ، أو على الأقل تبدو وكانها قد حلت ٠

وهكذا يمكن القول أن الغرض الأولى للنظم هو مساعدة الكائنات البشرية فى التعامل مع مشاكلهم الصعبة الحل أو غير المحلولة ٠ ولا يتبادر الى الذهن أن المسألة قاصرة على النماذج العليا من المشاكل ، ولكن تمتد الى معظم أساسيات نسيج الحياة الاجتماعية وحتى فيما يظن أنه أبسط أنماط نسيج الحاجات الأساسية ، ففى معظم المجتمعات الأكل هو خبرة يومية ، ولكن تظهر المشكلة فى تقرير ما يؤكل وفى أى كيفية ، وكيف ؟ ومتى ؟ وأين ؟ والدليل على ذلك أن الاجابة على كل من هذه الأسئلة يختلف من مجتمع لمجتمع ومن زمان لزمان فى نفس المجتمع الواحد ، ولا شىء حول الأكل مستقر فيما عدا أنه يحدث بأسلوب ما ٠ ويمكن أن يتضخم المثل اذا ذهبنا الى المشاكل الكبيرة فى المجتمع ، فمثلا اذا كانت المجتمعات تعرف بصدق الحل للمشاكل الاقتصادية ، مثل مشاكل الانتاج والتوزيع ، سوف لايكون هناك نظما اقتصادية متعددة

(1) Ibid. p. 125.

ولكان هناك نظام واحد فقط · ولكن المجتمعات لا تعرف الحل بصـدق مطلق ، ولهذا يوجد حلول كثيرة أى نظم كثيرة للانتاج والتوزيع تختلف من مجتمع لمجتمع ومن زمـان لزمـان ، وهذا هو سبب الصراع بين اسـاليب تلك المجتمعات فى حل المشكلة الاقتصادية لأنهم اعتمدوا على عقولهم البشرية التى تحركها وتغيرها اختلاف مصالحهم وأهوائهم ، وهكذا مع كل النظم نرى اختلافا بين تلك المجتمعات فى معاملتها لنفس المشكلة من مجتمع لمجتمع ومن ثقافة لثقافة ·

نحاول الآن أن نجرد الوظيفة المتضمنة فى كل تلك الحالات السابق عرضها ، تلك الوظيفة التى تفصح عن نفسها حيث يكون هناك مشكلة غيـر محلولة تتعامل معها الكائنات البشرية ، اذن يتضح بجلاء أن هذه الوظيفة هى مساعدة الكائنات البشرية على حل هذه المشكلة · وهكذا يمكن القول أن الهدف الأولى للنظام هو التسهيلات الواضحة ، ونعنى بهذا الاصطلاح مساعدة الكائنات البشرية لاتمام أهدافهم بقليل من العناء ، فالتسهيلات الواضحة تعنى الاقتصاد سواء فى الفكر أو العمل ، كما تعنى أيضا عدم الاحسـاس بالزام النظام ووطأته على أعضـاء المجتمع أثناء تقديمه تلك التسهيلات · اى تصبح تلك التسهيلات أنماطا وأساليب فى التفكير والعمل لايأتيها أعضاء المجتمع بيسر فقط ولكن أيضـا تكون محببة الى النفس فمثلا تقدم المدارس التربية ، وتقدم الطرق الجوية النقل ، وتجهز التليفونات الاتصالات ، والنظم تقدم تلك التسهيلات والخدمات دون أن تبرز نفسها فى الصورة الا بأقل قدر ممكن فلا يشعر بوطأتها أعضاء المجتمع ·

وهكذا يكون النظام ككل موجها لهدف معين أى لانجاز وظيفة معينة أولية ، وهذه الناحية من النظام تصل وتضع بصماتهـا على كل جزء من أجزاء النظـام ، ومن ثم لايوجد اجراء ولاجزء من المعدات ولا عضو فى الهيأة لم تلمسه هذه الناحية من النظام ، هذا الوجه يمكن أن نطلق عليـه اصطلاح الوظيفة الرئيسية للنظام السابق الحديث عنهـا فى فقرة وظيفة النظم · أى أن الهدف الأولى هو الغرض الذى أنشىء من أجله النظام ·

الأهداف الثـانوية

THE SECONDARY POROSES

نحن نعـرف أن معظم النظم الاجتمـاعية تتكون من عناصر وأنسـاق فرعية ، وأن هذه العناصر وهذه الانساق الفرعية الى جانب اشتراكها معا فى أداء الوظيفة الرئيسية للنظام ، تؤدى وظائف فرعية • ولهذا رأينا أن للنظام وظائف فرعية الى جانب وظيفته الرئيسية • وكذلك علمنا أن الوظيفة الرئيسية أو ما اصطلحنا فى هذه الفقرة على تسميتها الهدف الأولى للنظام لا يمكن أن ينجزها الا النظام ككل بجميع أنسـاقه الفرعية وعناصره ومن ثم فهى خاصية من خصائص النظم الاجتماعية وليست خاصة بنظام معين •

وتتعلق الأهداف الثـانوية بتلك الانسـاق الفرعية التى تتركب منهـا معظم النظم الاجتماعية وهكذا رأينا أن معظم النظم تستطيع أن تنجز وظائف فرعية عديدة غير وظيفتها الرئيسية ، ولكن من بين هذه الأهداف الثانوية هدفان ، وان كانا ثانويين الا أنهما مثلهما مثل الوظيفة الرئيسية لا يمكن أن ينجزها الا النظام ككل أى بجميع عناصره وأجزائه ، ومن ثم فان هذين الهدفين الثانويين يتعلقان بخصائص النظام كنظام ، أى أنهما هدفان ثانويان لكل نظام اجتماعى •

وهذان الهدفان الثانويان هما الحياة كنظام والنمو •

هدف الحيـــاة كنظام

وغنى عن البيان أن أى نظام لا يستطيع انجاز أى من وظائفه ان لم يكن موجودا ، ومن ثم يصبح الاهتمام الرئيسى عند أولئك الذين يقودونه فى المجتمع وبين النظم الأخرى ، أن يتأكدوا من عدم زواله • وهكذا يصبح الاهتمـام الأول لهياة النظام وخاصة مديرو النظـام أن يعملوا جاهدين على أن يستمر النظام فى الحياة ، ومن ثم عندما تظهر أى تهديدات لوجود النظام ، لابـد أن يتحد مديرو النظام بقوة للدفاع عنه ، وهذا هو الدور الرئيسى للمديرين •

ولكن السؤال الهام الآن ، ما هى تلك القوى التى تهدد النظام ؟ ينبع هـذا التهديد من مصدرين الأول من داخل النظام والثانى من خارجه ٠

أولا ـ التهديد من الداخل :

يرجع التهديد لحياة النظام من الداخل الى سببين الأول الضعف فى أحد عناصر النظام والسبب الثانى عكس الأول وهو الافراط فى القوة لأحـد عناصر النظـام ٠

أ ـ من ناحية الضعف :

١ ـ التهديد من الداخل يمكن أن ينبعث من الضعف فى هيأة النظام ، كأن يقوم أعضاء هيأة النظام فى حكومة أو مصنع بعدم أداء أدوارهم على الوجه الأكمل ، أو أن يستغلوا النظام لتحقيق مصالحهم عـلى حسـاب مصلحة النظام ٠ ولازالة هذا الخلل ، اما أن يجبر هؤلاء الأعضـاء على العودة الى النهج السليم ، أو أن يطردوا من النظام ٠

٢ ـ وكذلك يمكن أن ينبعث الضعف من معـدات النظـام ٠ فالجيوش التى معداتها بالية تخسر الحرب ، وكذلك المصانع ذات المعدات القديمة تخسر السوق ، والمعدات البالية فى نظام النقل كالطيران أو السكة الحـديد تهدد الأرواح ٠

٣ ـ كما يمكن أن ينبعث الضعف فى الاجراءات ، كعدم معرفة أعضاء النظام باجراءاته ففى فريق كرة القدم ينهزم اذا كان أعضاؤه لا يعرفون قواعد اللعبة ، وفى نظـام الحـكومة تتعثر المشاريع ، وفى نظام اقتصـادى كمصنع يحقق خسارة كبيرة ، وهنا لابد من اعادة تدريب الأعضـاء بقوة ، أو أن يؤكد على ضرورة اتباع اجراءات النظام عن طريق تشديد العقوبة على الخارج عن الاجراءات ٠

٤ ـ كذلك يمكن أن يعلن الضعف عن نفسه فى التنظيم ٠ وفى هذه الحـالة لابد من اعادة تنظيم النظام ، فمثلا الاضطراب فى التنظيم فى أى جيش

يمكن بسهولة أن يكون المسئول عن هزيمته كما حدث فى سنة ١٩٦٧ فى مصر ، وكما حدث فى الامبراطورية الروسية فى الحرب العالمية الأولى • وتكمن سلامة التنظيم فى العلاقة الصحيحة والسليمة بين الأجزاء فى الكل ، ولابد من الاقتراب من ذلك حتى لا يتهدد النظام من الداخل • فمثلا أى قسم من أقسام مصلحة أو مصنع لابد أن يوائم نفسه للأقسام الأخرى وهذه بدورها توائم نفسها له ، فمثلا اذا حدث تجديد فى أى قسم فى نظام ما ، فلابد من اعادة تكييف الاقسام الأخرى لاعطاء التوازن لكل النظام ، وهذا يتطلب تنظيما قويا ، ومن دواعى قوة التنظيم هو ارساء قواعده ، بمعنى أن يشعر المحكومين بقواعد التنظيم بجبرية والزام تلك القواعد وهنا نقول أن القواعد قد تأسست

كما ينشأ أيضا التهديد لحياة النظام من الداخل عندما يحدث ضعف فى بعض أجزائه أو بمعنى آخر أنساقه الفرعية ، ولا تستطيع الانساق الأخرى السيطرة Control على هذا الضعف وازالته • اى كما أن الضعف فى أى عنصر من عناصر بناء النظام يهدد حياة النظام كله ، كذلك الضعف فى أى نسق فرعى من الأنساق الفرعية للنظام يهدد النظام كله بالموت ، وسبب هذا هو التساند المعقد والمركب للعناصر والأقسام فى كثير من النظم • فاذا أخذنا مثلا شركة كبيرة لبيع المنتجات ، فعندما تقوم كل أقسامها بوظائفها الفرعية على الوجه الأكمل يمكن أن يكون عمل الشركة ناجحا اى تحقق وظيفتها الرئيسية ، فيمكن أن تشارك فى توزيع السلع على المستهلكين بربح معقول فتشبع حاجة المستهلكين ، ومن ناحية أخرى تشبع حاجة مصانع منتجاتها كمنفذ لسلعها ، وتشبع حاجة موظفى الشركة فى مستوى معيشة لائق ، وتشبع حاجة أصحاب رأس المال فى تحقيق عائد مجزى لأموالهم • ولكن عندما يفشل أحد أقسام الشركة فى القيام بوظيفته فان نجاح المشروع كله يتهدده الخطر • فمثلا اذا كان البائعون لا يجيدون بيع السلع فمن ثم لا يبيعون كميات معقولة ، اذن يفشل المشروع فى أن يحقق أغراضه ، وكذلك الأمر صحيح بالنسبة لقسم الحسابات الجارية اذا توسع فى البيع بالنسيئة

لاناس لا يدفعون فواتيرهم فان المشروع لا يحقق النجاح لرأس المال • واذا كان قسم المشتريات لا يشترى سلعا جذابة للمستهلكين ، فسيمتنع المستهلكون عن الشراء فيفشل المشروع ، أو لا تشترى أقسام المشتريات الا السلع التى يدفع منتجوها عمولات للموظفين بغض النظر عن جودتها أو هناك طلب عليها ، وأيضا بأسعار مرتفعة ، فان كل ذلك يسبب فشل المشروع • وهذا المثل يوضح أن النظام بالضرورة يعتمد على تساند أجزائه ، وأن ذلك يتطلب تنظيما يحقق هذا التساند لتحقيق وحدة الكل وهو النظام •

ب ـ الافراط فى القوة :

١ ـ النمط الثانى من التهديد من الداخل لحياة النظام ، يمكن أن يأتى ليس من الضعف ولكن بالعكس من الافراط فى القوة لأحد عناصر النظام • اذ أن القيام السليم بالوظائف لأجزاء النظام يتطلب أن لا يفرط أحد من الأجزاء فى الحجم أو الأهمية لمكانه بين الاجزاء الأخرى • ولكن اذا حدث الافراط فى أحد الاجزاء فان ذلك يشكل تهديدا للكل ، تماما كما يحدث عندما يفشل أحد الاجزاء فى اتمام وظيفته نتيجة للضعف •

٢ ـ التهديد من الداخل لحياة النظام يمكن أن تنبعث من الافراط فى قوة الهيأة • وأوضح مثل على ذلك فى النظام الحكومى عندما يتحول الى دكتاتورى ، فان هذا التحول هو نتيجة افراط قوة رئيس الدولة ، وما علينا الا أن نتذكر هتلر فى المانيا وموسولينى فى ايطاليا ، فهم أخذوا على عاتقهم كل وظائف الحكومة ، ونتذكر الى جانب ذلك مدى الخطر والتهديد الذى شكله كل منهم لهدف حياة النظام • ومثل آخر يمكن أن يؤخذ من مديرى المؤسسات الكبيرة عندما يستغل أحدهم منصبه لتحقيق أغراضه الشخصية ، وهنا يبدو واضحا أن مثل هذا المدير كلما زادت قوته كلما زاد استغلاله للمؤسسة فى تحقيق أغراضه الشخصية مما يشكل تهديدا خطيرا لحياة النظام نفسه •

٣ ـ التهديد من الداخل يمكن أن ينبعث أيضا من الافراط فى قوة المعدات ، يمكن للنظم أن تبدو منتفخة كثيرا ، اذا حدث أن المنتجين فى داخل

نظام أتوا بانتاج يهدد حياة النظام ، بسبب أن النظام ليس لديه القدرة الكافية لاحتواء هذا الانتاج ، وهنا يبدو واضحا ضرورة وقف مثل هذا الانتاج • فمثلا اذا حدث فى معامل البحث فى مؤسسة صناعية كبرى اختراع أو اكتشاف انتاج قد يهدد نجاح منتجات أخرى تصنعها المؤسسة وتربح منها ، فان ذلك السر يغلق عليه فى الخزائن وينسى • الاختراع الزائد والمفرط يمكن أن يكون مميتا للمؤسسة اذا كان ينقصها مثلا رأس المال الكافى لالغاء الآلات القديمة واحلال الآلات الجديدة طبقا للاختراع الجديد ، فان مثل هذا الاختراع يغلق عليه •

٤ ـ التهديد من الداخل لحياة النظام يمكن أيضا أن ينبعث من الافراط فى قوة الاجراءات • فمثلا فى مؤسسة كبيرة ، اذا كانت مطالب المجاملات تتدخل فعلا بعلاقات اجتماعية ذات قوة مؤثرة فى سير العمل مثل تعيين الموظفين غير الاكفاء لمجرد أنهم أقرباء مدير المصنع أو أحد كبار الموظفين فيه ، أو تتوقف توقيع العقوبات على المهملين فى أداء أدوارهم لصلاتهم القرابية بكبار الموظفين ، فان ذلك كله بالضرورة يهدد نجاح المؤسسة كنظام •

٥ ـ التهديد من الداخل يمكن أن ينبعث من التنظيم المفرط فى القوة ، مثل تضخم وكثرة السجلات والاعمال الكتابية الذى يؤدى الى التعقيد من ناحية ومن ناحية أخرى الى زيادة عدد موظفى المؤسسة عن الحد الأنسب الملائم للمشروع ، كل هذه تعتبر دلائل على التنظيم السيء •

ثانيا : التهديد من الخارج :

قد يأتى تهديد حياة النظام من الخارج أيضا فى شكل تأثيرات تنبعث من عوامل خارجية وتنصب على عنصر من عناصر النظام فتؤدى الى ضعفه أو افراطه فى القوة •

١ ـ من ناحية الضعف :

١ ـ قد يحدث التهديد من الخارج فيؤدى الى ضعف حياة النظام ، فمثلا الفساد والتعفن بين قواد الرومان أضر كثيرا البلاد التى كانت تحكمها

الامبراطورية فى القرون المتأخرة من حياة الامبراطورية فهدد حياتها كنظام ، فهذا النوع من الضعف أدى الى تغير جوهرى فى الامبراطورية كنظام اجتماعى ، فبعد أن كانت كثير من البلاد تدخل طواعية فى حماية الامبراطورية ، أصبحت الثورات تقوم فى كثير من البلاد ضد الامبراطورية للتخلص من حكامها المتعنتين • وكان هذا أيضا سببا فى انهيار النظام العثمانى •

٢ ـ وأيضا قد يكون التهديد من الخارج لحياة النظام يأتى فى شكل ضعف الاجراءات • مثل عندما يحدث تغيرات فى البيئة المحيطة بمؤسسة صناعية كبرى ولا تستطيع أن تغير من اجراءاتها لتتواءم مع التغيرات الحادثة حولها ، كأن تنخفض ساعات العمل فى المجتمع التى توجد فيه المؤسسة وتظل هى على ساعاتها الزائدة فيهرب منها العمال الى غيرها من المؤسسات ، أوأن ترتفع الاجور فى المؤسسات الموجودةحولها فى البيئة ولا تستجيب الاجراءات لتلك التغيرات • ومثل آخر فى النظم السياسية ، عندما دخل الروس دول شرق أوربا ، وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وألمانيا فى غرب أوربا ، ودمروا النظم التى كانت هناك ولم يستطيعوا أن يقدموا نظما ذات اجراءات مشبعة فأدت الى دمار هذه المجتمعات وتخلفها وفقرها ، فهم دمروا أكثر مما بنوا •

٣ ـ كذلك التهديد لحياة النظام يمكن أن يأتى فى شكل ضعف المعدات ، بمعنى أن الظروف الخارجية لا تؤدى الى المحافظة مثلا على سلامة معدات النظام • فلقد هدد اليابانيون فى بداية الحرب العالمية الثانية نجاح الحلفاء ضد المحور عن طريق اغلاق امدادات المطاط للولايات المتحدة من جزر الهند الشرقية • وفى وقتنا الحاضر محاولة الروس الوصول الى مصادر البترول ، أو حتى التمكن من منع وصول امدادات البترول عن الدول الغربية وأمريكا عند الحاجة لاضعاف معدات النظام فى العالم الغربى عند نشوب الحرب •

٤ ـ التهديد من الخارج يمكن أن ينصب على اضعاف التنظيم ، مثل قيام مؤسسة كبرى فى مجتمع تقليدى ذى علاقات شخصية وأولية قوية

تتدخل بشكل فعال فى عمل المؤسسة مما يؤدى الى ضعف التنظيم ، اذ ان التنظيم الصناعى او فى اى مؤسسة اقتصادية يتنافى مع العلاقات الشخصية ، فمن الأسس المعروفة أن العلاقات التعاقدية هى أساس العمل والتنظيم الناجح فى تلك المؤسسات ٠

ب : من ناحية الافراط فى القوة :

وهذا المظهر يبدو فى حالة تهديد حياة النظام من الخارج اكثر وضوحا من حالة الضعف ٠

١ ـ فقد يحدث التهديد من الخارج لحياة النظام فى شكل الافراط فى قوة الهياة ٠ تعتبر العبقرية المتفردة عادة تهديدا للنظم المؤسسة (١) فمثلا هددت نظريات جالليو Galilleo عن الفلك عقائد الكنيسة الرومانية حتى ان الكنيسة طالبت باعدامه ٠ كما أن كل نبى جديد ظهر هدد حياة النظم الموجودة بالزوال ، رغم انه عادة يكون مكسبا كبيرا للمجتمع ٠ وايضا ينطبق هذا على الجماعات الاجتماعية التى تقوم بنفس الدور ، فقبائل الجرمان التى هاجمت الأمبراطورية الرومانية الغربية هددت نظم الامبراطورية بالزوال ، وكذلك قبائل التتار شكلت تهديدا للنظم الاسلامية عند غزوها للدولة العباسية الثانية ، وكانت سببا فى سقوط هذه الدولة ٠

٢ ـ وقد يكون التهديد من الخارج فى شكل قوة المعدات ٠ فالنظام هو مؤسسة تتضمن معدات معينة لعمل الأشياء ، وعادة هذه المعدات ذات عمر طويل ، فاذا ظهر فى المجتمع اختراع لآلة تؤدى ذلك العمل بتكاليف اقل ووقت اقصر فانها تهدد معدات المؤسسة لأنها تعنى خسارتها لأن المؤسسة لا تستطيع الاستغناء عن معداتها ذات العمر الطويل والاثمان الباهظة ٠ وبالمثل ايضا لم يستطع الهنود الحمر بالأسهم والأقواس

---

(١) راجع الفقرة الخاصة بالموهبة عند فبر فى كتاب التغير الاجتماعى للمؤلف ـ الناشر مكتبة وهبه

وهى معدات الدفاع فى نظامهم ، مقاومة قوة النيران التى اتى بهـا الأوربيون ، فزالت نظم الهنود وأجبروا على تغيير نظمهم ولبســـوا الملابس الغربية ٠

٣ ـ التهديد من الخارج لحياة النظم قد يأتى أيضا عن طريق قوة الاجراءات، ففى بعض الاحيان يحدث أن الأمم التى هزمت واحتلتها الدول الأقوى ، يتغلبون على هازميهم من خلال تفوق اجراءات السلم ٠ فمثـلا فيليب المقدونى بعد غزو اليونان أخذ أرسطو مدرسا لابنه الاسكندر ، وهكذا سمح لثقافة اليونان أن تسود وزالت النظم المقدونية ٠ وحدث اثنـــاء احتلال البريطانيين للهند أن أصبح كثير من المديرين الانجليز مسلمين٠

٤ ـ كذلك التهديد من الخارج لحياة النظام قد يأتى فى شكل قوة التنظيم ، عندما الثقافة الأوربية مع صناعتها وتنظيماتها انفتحت على بلاد غرب آسيا فى منتصف القرن التاسع عشر ، القابلية للتنظيم عند اليابانيين وقدرتهم الكبيرة على التمثيل للأنماط الوافدة ، عن طريق التقليد ، ادت بهم الى الوصول الى مرحلة التصنيع فى فترة قصيرة وأخذوابالنظم الجديدة ، بل كان فى قدرتهم ليس فقط الوقوف فى وجه الغرب ولكن أيضا تهديد النظم الاقتصادية الأوربية رغم هزيمتهم فى الحرب العالمية الثانية ٠

هدف النمو

كما تميل النظم الى الحياة هى أيضا تميل الى النمو ، ونعلم أن المجتمع يتكون من مجموعة من النظم الاجتماعية • فاذا كان النمو هو من الأهداف الثانوية لكل نظام ، معنى ذلك أن ذلك الهدف يدفع النظام الى الدخول فى منطقة المنافسة بين النظم ، لأنه من الواضح أنه اذا نمى نظام واحد فى مجتمع ثابت الحجم ، فان ذلك النمو بالضرورة سيكون على حساب النظم الأخرى ، ومن ثم ينتج الصراع بين النظم ، وعلى أى حال سنناقش هذه النقطة فى فقرة قادمة عند الحديث عن صراع النظم • وما يمكن قوله هنا هو أن النظم لديها ميلا لزيادة حجمها ومجال تأثيرها وهو ما نسميه بالنمو • فاذا كان المجتمع كله فى حالة نمو ، ذلك يعنى أن كل النظم فى حالة نمو ومن ثم لا يحدث الصراع ، انما يحدث الصراع فقط فى حالة الثبات النسبى للمجتمع ، حيث يصبح نمو نظام واحد هو على حساب النظم الأخرى •

وغنى عن البيان أن هياة النظام وخاصة الرجال النظاميون (المديرون والمنتجون) ينظرون الى نظمهم على انها النظم الاكثر اهمية ، وهذا أمر منطقى يتطابق مع طبيعة الولاء للنظام ، ومن ثم يشعرون أن نظمهم هى الأحق بأن تؤدى دورا أكبر فى المجتمع ، ومن ثم يصبح الهدف الثانوى للنظام هو أن يزداد وينمو • ويمكن أن يحدث نمو النظم عن طريق نمو أى عنصر من عناصره مثل الهياة أو المعدات أو الاجراءات أو التنظيم ، أو نمو أكثر من عنصر أو كل العناصر •

١ ـ تنمو النظم بزيادة عدد هياتها ، ففى القرن التاسع عشر كان الجيش الأمريكى فى وقت السلم قليل العدد ، ولكن وصل الرقم الى الملايين فى القرن العشرين • وهنا نذكر القارىء بأن زيادة عدد الهياة أو قلتها فى أى نظام عن العدد الانسب لحاجة النظام أو الظروف المحيطة به يؤدى الى ضعف النظام ، كتكديس عدد العمال بما يزيد عن حاجة المؤسسة مثلا فان ذلك يؤدى الى خسارة المؤسسة والعكس صحيح

فان قلة عدد العمال عما يتطلبه العمل فى المؤسسة يؤدى أيضا الى ضعف النظام ٠

٢ ـ تنمو النظم بزيادة معداتها ، تزيد الحكومات معداتها فى حالة الحرب مثلا ، وبعض الدول تزيد معداتها عن طريق التوسع على حساب الحكومات الأخرى (الاستعمار) ، وتنمو النظم الاقتصادية عن طريق زيادة رأس المال للتوسع فى نشاطها أو انشاء فروع لها فى مناطق جديدة ٠

٣ ـ وتنمو النظم أيضا بزيادة اجراءاتها ، ومن أغرب أنواع النمو فى الاجراءات فى النظم ذلك الذى حدث فى روسيا السوفييتية ، حيث مد النظام السياسى اجراءاته لتشمل نظم الفنون والعلوم ، مدعية أن فى قدرتها أن تقرر ما هو أصلى وأحسن مما أوقع الصراع بين النظام السياسى وكثير من العلماء والفنانين ٠

٤ ـ وأخيرا تنمو النظم بزيادة أو كثافة تنظيماتها ٠ ابتدأت الديموقراطية فى المذهب الحر بنوع من الحكومات يعتبر أقل الحكومات تدخلا فى شئون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية وذلك طبقا لمفهوم تقديس حرية الفرد ، ومن ثم أصبحت وظيفة الحكومة هى حماية المواطن فى الداخل أى عدم اعتداء بعضهم على بعض ، وحمايته من الخارج ٠ ولكن فى العصر الحديث ازدادت كثافة تنظيمات الحكومة ، ونمت نموا عظيما نتيجة الظروف التى دفعتها للتدخل فى كثير من شئون الحياة الاجتماعية لتوفير الاستقرار للمجتمع ٠ ومثل آخر معظم المؤسسات الانسانية ، وأيضا نظم البحث العلمى ابتدأت كمنظمات خيرية ، وانتهت كمصالح مهمة ذات تنظيمات كثيفة ٠

كما أن النمو فى ضبط وسيطرة النظام على معداته وهيأته حتى يكونوا خاضعين تماما للنظام ، يعد نوعا من التطرف للتنظيم ٠

ويلاحظ انه يوجد اتجاهان للنمو فى حياة النظم ، الاتجاه الأول يمكن أن نسميه النمو فى القوة ، والثانى النمو فى الامتداد ٠

الاتجاه الأول ، الا وهو نمو قوة النظام يأتى عن طريق احساس أعضاء النظام بأنهم يحملون رسالة ، ونعنى بالاحساس بالرسالة ، ليس مجرد اعتقاد أعضاء النظام عن أهمية الهدف المراد انجازه ، بل أيضا الاحساس بأن عدم انجاز هذا الهدف معناه تدهور المجتمع ، فمثلا يعتبر الجيش نظاما ، ذلك الجيش فى حالة الحرب حاملا لرسالة ذات هدف محدد ومختصر جدا وهو النصر ، لأنه اذا هزم معنى ذلك أن الأمة التى يدافع عنها تكون معرضه للانهيار • وكذلك كان يشعر المسلمون الأوائل أن الدين الاسلامى هو للعالمين كافة (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) ومن ثم جاء الأمر الربانى (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل • وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) فجعل سبحانه وتعالى النظام الاسلامى يحمل رسالة على المسلمين ابلاغها للعالمين ، ومن هنا كان الجهاد بالنفس والمال فى الاسلام عنصرا أساسيا وفريضة ، وهكذا نمى النظام الاسلامى وأزال عبادة الأوثان ، وحرر الانسان من العبودية لغير الله فى كل صورها فى مشارق الأرض ومغاربها •

والاحساس بالرسالة التى يتضمنها النظام تؤدى الى نمو روح الجماعة بين أعضاء النظام ، (وروح الجماعة هى فى ذاتها الفهم والاحساس الذى يكون لدى الناس عن انتمائهم لبعض وعن كونهم متوحدين كل مع الآخر فى تناغم تام قد ركب أساسه وشكله حالة من الوفاق مثل هذه الظروف من الاحساس بالمشاركة المتبادلة والاستجابات الواضحة العلنية تؤدى الى السلوك المتماسك) (١) •

فعادة تشكل الجماعة الاجتماعية القوة الانسانية man power للنظام ، وما يحدث التماسك القوى بين أعضاء تلك الجماعة هى الروابط العاطفية ، فهم يشعرون أنهم منجذبون الى بعض لأنهم يشاركون فى هدف مشترك هو رسالة النظام الذى ينتمون اليه كأعضاء ، والذى يشعرون نحوه

---

1 — Blumer : Op. Cit., P. 206.

بالولاء الذى قد يدور من مجرد تنبيه صغير الى قمة شامخة من الولاء قد تصل الى حد الرغبة الحارة فى التضحية بالنفس كما فى الاستشهاد فى الاسلام ٠

ويلاحظ أن نمو روح الجماعة هى شىء يمكن أن يحدث عن تدريب مقصود ٠ فالوقائع الاجتماعية تكشف لنا عن أن الرجال يمكن أن يدربوا بسهولة للعمل والتفكير معا ، بل يعتبر ذلك أحد خصائص الجماعات الاجتماعية ٠ ليس هذا فقط بل انه أيضا يمكن تدريب الجماعة ليس فقط على العمل معا فى كل مناسبة ، ولكن أيضا الشعور بأن المحافظة على مثل هذا الاسلوب المشترك هو شىء هام جدا لحياة الجماعة ونموها ٠ وهناك أمثلة كثيرة فى التاريخ تدل على أن روح الجماعة يمكن أن تعلم وتغرس فى أعضاء الجماعة ، فهناك مثلا تجارب نظام أسبرطه القديمة ، وأصدق مثل النظام الاسلامى الذى آخى بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وجعل منهم جماعة واحدة ٠

أما الاتجاه الثانى لنمو النظم الا وهو الامتداد فقد يأخذ أسلوبين الأول فى الزمن أو الديمومة ، والثانى فى المجال ٠

وهناك أمثلة عديدة عن النظم ذات الحياة الطويلة ، مثل النظام الاسلامى فقد عاش أربعة عشر قرنا ومازال ، وكذلك اليهودية والمسيحية ، ويلاحظ أنه لا يوجد نظام يطاول النظم الدينية فى أعمارها ، مما يدل على أن الديانات هى أكثر النظم ديمومة ٠

أما من ناحية الامتداد فى المجال فالنظام الاسلامى امتد من الجزيرة العربية حتى شمل معظم انحاء العالم ، ومازال يمتد وينتشر فى بيئات جديدة ٠

ويعتبر الأفراد والجماعات من أهم العوامل التى تساعد على نمو النظم ٠ ونعنى بالأفراد أولئك الأفراد غير العاديين ، أو ما أطلق عليهم فبر Weber الموهوبين Charismatic (١) ، مثل الأنبياء أو الزعماء السياسين

---

١ ـ لمزيد من الاطلاع فى هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب التغير الاجتماعى للمؤلف ـ الناشر مكتبة وهبة ٠

والحربيين أو العلماء ، أى أولئك الذين يقدمون مساهمات يمكن أن تنمى النظم سواء فى القوة أو الامتداد • فالأنبياء قدموا نظما نمت سواء فى القوة أو الديمومة أو الامتداد فى المجال ، مثل المسيحية والاسلام ، كذلك العلمـاء قد قدموا اكتشافات واختراعات ساعدت على نمو النظم التى تمت فى داخلها الاختراعات مثل النظام الصناعى ونظام النقل ، ونظام التعليم •

ويلاحظ انه ليس كل الاختراعات تعمل على نمو النظم ، ذلك أن الاختراع قد يكون متوافقا مع الصورة النظامية ، أعنى التصورات الفكرية التى يتمسك بها المجتمع ، ففى هـذه الحـالة يعمل الاخـتراع على نمو النظام كاختراع السيارة أو الطائرة فى نظام النقل ، فالهدف الأولى لنظام النقل هو تسهيل عملية النقل ، أى الاقتصاد فى الجهد والوقت والنفقات ، ومن ثم فاختراع السيارة أو الطائرة متوافق مع الصورة النظامية ، ولهذا أدى الى نمـو النظام • والعكس صحيح بمعنى قد يكون الاختراع غير متوافق مع الصورة النظامية ولا يجرى فى قنواتها ، ومن ثم يصبح عاملا مزعجا ومناوئا للنظام ، كما حدث فى ادخال التكنولوجيا الحديثة فى النظم الاجتماعية التقـليدية (ريفى ـ قبلى ـ صيد) فى مجتمعات غرب ووسط افريقيا ، حيث أدى الى انهيار كثير من تلك المجتمعات ، بينما مجتمعات أخرى لم يحدث فيهـا تلك الانهيارات كما حدث فى مجتمع المملكة العربية السعودية ، وفى الحقيقة أنه فى مثل هذه الحالة الأخيرة تكون العملية الاجتماعية نوعا من الاختبـار لعظمة النظام عندما يستطيع بكفاءة ونجاح احتواء هذه التجديدات • وعادة يتوقف ذلك على النظام الرائد فى المجتمع وما يتضمنه من تصورات فكرية تؤيد أو ترفض هذه التجديدات ، وسنزيد هذه النقطة ايضـــاحا فى الفصول القادمة أن شاء الله •

كما أن الجماعات لها دورها فى نمـو النظم ، وذلك عندما تنمو قيم وروح مثل هذه الجماعة ، فمثلا تعتبر ثقة الجماعات فى قادتها عامل هـام فى التقدم أى النمو ، بينما فى أوقات أخرى ، قد ترفض الجماعات اعطـاء ثقتها لهم لأسباب مبهمة • حقيقة أن هناك حالات لا تفهم فيها الجمـاعات قادتها ورغم ذلك يتبعونهم عن طيب خاطر ، ولكن هناك أيضا حالات أخرى

عندما لا تفهم الجماعات قادتهم فترفض اتباعهم ، ومن ثم تتوقف النظم التى هم أعضاؤها عن النمو ٠

لننظر مثلا الى نظام كالأسرة من ناحية النمو ٠ يقاس منحنى الاسرة كنظام عن طريق رد فعل الشباب لأوامر الاسرة الشرعية ٠ تحدث ثورة الشباب فقط عندما لا تقدم الأسرة أى اطار من الأمان للشباب ٠ فالثورة ضد الآباء تعنى أن يأخذ الشباب موقفا معارضا لاتجاهات آبائهم ، ولكن فى الثقافات ذات النمو الحسن حيث الأسرة مستقرة ، ومن ثم فانها تستطيع اشباع واحتواء احتياجات الشباب النامية ، ولهذا لا يحتاج الشباب للثورة على الآباء ، بل انهم يتابعون النمو فقط ٠

ويلاحظ أن نمو النظم يتطلب مددا وانعاشا مستمرا بانضمام أعضاء جدد الى هيأة النظام ٠ وقد يكون هذا الامداد عاما ، بمعنى على causal ومؤقت temporary مثل العضوية فى نادى اجتماعى ، فانضمام العضو هنا له أسباب ، وأيضا وقتى وليس دائما ٠ كما قد يكون الامداد لهيأة النظام ثابتا Fixed ولا رجعة فيه ودائما مثل عضوية نظام الاسرة ٠ كما قد يكون الامداد فى بعض النظم قهريا ، كما هو فى الجيوش عند بعض الدول التى فيها نظام الجندية اجبارى أو يكون الامداد اختياريا ، كما هو فى نظام الاعمال الحديثة مثل الصناعة والبنوك ٠

ومن ناحية أخرى بعض النظم مفتوحة ، بمعنى أن ينضم أى فرد لعضوية النظام طالما يرغب فى ذلك ٠ أو قد تكون النظم مغلقة بمعنى انه لا يمكن الانضمام لهيأة النظام الا بدعوة من الهيئة ٠ أو قد تكون النظم فى مجتمعات متقدمة مما يعطيها أفضلية وميزة فى انعاش ونمو النظم عن تلك المجتمعات التى تتميز بالصلابة كما يلاحظ فى المجتمعات البدائية ٠

النظام الرائد

THe LEADING INSTITUTION

فكرة الترتيب

تعتبر فكرة الترتيب من أهم عوامل البناء الاجتماعى ، فيرى راد كليف براون أن كلمة بناء تشير بالضرورة الى وجود نوع من التنسيق والترتيب بين الأجزاء التى تدخل فى تكوين الكل الذى نسميه بناء (١) ، وفكرة النسق نفسها تتضمن وتشير الى معنى الترتيب ، فالنسق هو ترتيب الأجزاء بأسلوب ما فى كل بحيث يحدث التساند الوظيفى ، فيذهب ريموند فيرث الى أن فكرة البناء توحى الى الذهن معنى العلاقات المنظمة بين الأجزاء والكل ، وكذلك الترتيب الذى ترتبط تبعا له عناصر الحياة الاجتماعية كل بالأخرى باعتبار أن البناء الاجتماعى نسق متكامل (٢) ويلاحظ أن مفهوم علاقات منظمة يتضمن بالضرورة معنى الترتيب ، فما التنظيم الا ترتيب من نوع ما للأجزاء فى هذا الكل ، ولذلك وجدنا أن من أهم عناصر البناء الاجتماعى هى فكرة التنظيم التى تعتبر ترتيبا ، ولذلك نجد فيرث رغم انه قرر أن فكرة البناء تتضمن معنى العلاقات المنظمة فانه عاد ليؤكد ويبرز فكرة الترتيب ليبين مدى أهميتها ٠

فالنسق هو ترتيب الأجزاء بأسلوب ما فى كل ، وهذا الترتيب يجعل لدى الناس القدرة على قيادة افعالهم ، اذ طالما انهم يعرفون ذلك الترتيب فهم يوجهون سلوكهم طبقا له ، وكذلك يؤدى هذا الى معرفة ردود افعال الآخرين ، طالما الترتيب معروف للجميع ، ومن ثم يمكن للعلاقات الاجتماعية أن تسير فى سهولة ويسر ، ويقل الصراع ، فامكانية التنبؤ بالوقائع الاجتماعية ، وما هو متوقع من كل عضو يقوم على أساس ترتيب العضو

---

١ ـ رادكليف براون (فى البناء الاجتماعى) المرجع السابق ص ٣ ٠

2 — Firth : Op. Cit., P. 82.

سواء فى سلم مكانات او سلم جماعات او سلم طبقات ، ذلك ما يمكن اى عضو فى المجتمع من أن يوجه سلوكه وأيضا يرتب حياته بما يتفق مع ما يعرفه من ترتيب للأعضاء الآخرين • ذلك ما جعل ايفانز بريتشارد يعتبر (أن البناء الاجتماعى هو مجموعة العلاقات التى تقـــوم بين الزمر الاجتماعية التى تتمتع فى العادة بدرجـة عاليـة من القـدرة على البقـاء والاستمرار فى الوجود) (١) •

ونفس فكرة الاستمرار فى الوجود تتضمن فى طياتها فكرة الترتيب ، فما يسمح بالقدرة على الاستمرار فى الوجود ، هو أن الأجـــزاء رتبت اى أصبحت ثابتة فى نظام معين ، فمفهوم الترتيب الذى يستخدمه علماء الاجتماع والانثرويولوجيا عند الحديث عن البناء الاجتماعى ، هو بالدقة أن الاجزاء رتبت أى أصبحت ثابتة طبقـا لنظام معين فى داخل الكل أى المجتمـــع ، واستمرار هذا الترتيب كدليل وموجه للعلاقات الاجتمـــاعية التبـادلية بين الاجزاء • ويعتبر أحد عوامل التغير فى المجتمـع ، هو تغير هذا الترتيب اى عدم استمراره او عـدم ثباته • وذلك ما جعـل رد كليف براون يقول (أن مسألة الاستمرار تعتبر من أهم مسائل البناء الاجتماعى فالأمة والقبيـلة والعشيرة والمنظمات الكبرى يمكن أن تسـتمر فى البقاء باعتبارها ترتيبـا للأشخاص رغم كل مايحدث للوحدات التى تدخل فى تركيبها من تغيرات) (٢) ويؤكد فورتس هذه الفكرة اذ يعتبر أن البناء الاجتماعى هو أجزاء يقـوم بينها نوع من الترتيب المنظم فى الزمان والمكان ، وأن مهمة الباحث البنـائى هى الكشف عن المبادىء التى تحكم الترتيب البنائى (٣) • فاذا اضـفنا الى هذه الحقيقة فكرة بلالوك Blalock عن البناء الاجتماعى حيث يعتبر

---

١ ـ ايفانز تريتشارد : المرجع السابق ذكره ص ٤٢

2 — Radcliff-Brown : Op. Cit., P. 10

3 — Fortes : Op. Cit., P. 55

(ان اصطلاح البناء سواء فى العلوم البيولوجية أو الطبيعية أو الاجتماعية يشير الى ترتيب عناصر النسق ، وأن الاصطلاح يستخدم كاداة لوصف العلاقات بين عناصر النسق) (١) · وهنا يظهر لنا معنى جديد وهو أن وصف العلاقات بين الاجزاء فى الكل هو معرفة ترتيب هذه الأجزاء فى الكل أى فى النسق ، وهكذا يصبح أحد مهام دارس البناء الاجتماعى هو معرفة الترتيب الذى يتضمنه البناء الاجتمـاعى أى ترتيب الاجـزاء المكون منها ذلك الكل المسمى المجتمع ·

لنتجه الآن لدراسة صفة هذا الترتيب فى الواقع الاجتماعى ، وليس معنى هذا أن الترتيب له صفة واحدة ، ولكن ما نعنيه هو الاجابة على سؤال ما هى أهم الصفات لهذا الترتيب فى الواقع الاجتماعى ؟ وعادة نحن نعتبر أن أهم الصـــفات فى تلك الصـــفة التى نراها فى جانب كبير من الوقائع الاجتماعية بمعنى أنها تتكرر من ظاهرة لأخرى ·

وفى الحقيقة نلاحظ فى الواقع الاجتماعى أن صفة الترتيب البـارزة فى مختلف الظواهر الاجتماعية هو ذلك التدرج أو السلم الاجتماعى الـذى يمكن رؤيته بوضوح فى كثير من الوقائع الاجتماعية فالمعايير والقيم مثـلا نراها تتدرج فى سلم للقيم أو سلم للمعايير ، فنجد أن هناك قيما فى القمـة وتتدرج القيم الى أدنى حتى تصل الى أشياء عادية جدا · فنجد مثـلا فى المجتمع الاسلامى فى قمة سلم القيم (لا اله الا الله) وتتدرج القيـــم حتى تصل الى أسلوب فى الطهى يتميز به مجتمع عن مجتمـع ، وكما ورد فى الحديث الشريف ما معناه أن الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق ، فالايمان سلم من القيم متدرج · ويمكن فى هذا الصـدد رسم خريطة لهـذا السـلم القيمى مسترشدين بالجزاءات المرتبطة بكل قيمة أو معيار ، فنجـد أن أشد الجزاءات الاعدام وهو للخارج على القيم العليا فى المجتمع · وتدرج الجزاءات فى سلم العقوبات يمـكن رسمه بسهولة فالقيمة الأعلى عقوبتها أشد والقيمة الأدنى عقوبتها أخف ،

---

1 — Blalock : Op. Cit., P. 69.

وهكذا طبقا لهذه القاعدة البسيطة يمكن رسم خريطة للسلم القيمى فى المجتمع • وكذلك يوضح ما سبق أن درسناه فى فصل المعايير أن هناك الأساليب الشعبية والأعراف ثم القانون ، ويتضمن القانون تلك المعايير أو القيم التى يشعر المجتمع بأهمية عدم الخروج عليها فيضع لها جزاءات مادية الى جانب الجزاء الاجتماعى ؛ مما يدل على علو هذه القيم أو المعايير ، وهكذا فالسارق تقطع يده والقاتل يعدم ذلك يعنى أن قيمة عدم الاعتداء على النفس أعلى من قيمة عدم الاعتداء على الملكية •

كذلك اذا اتجهنا الى الجماعات الاجتماعية نجد أن المجتمع يرتب الجماعات فى سلم اجتماعى ، فالجماعات عندما تقوم بوظائفها فى المجتمع ، وعندما تثبت هذه الوظائف المختلفة فى نموذج يحدد الموقف الاجتماعى لشخص معين بشغل هذا الوضع ، فاننا نسمى هذه الوظائف بالادوار الاجتماعية • ولما كان المجتمع عبارة عن تنظيم من عدة جماعات تقوم بأنواع مختلفة من النشاط ، فاننا نتوقع نتيجة لهذا وجود أدوار اجتماعية كثيرة والملاحظ أن المجتمعات تباين بين أعضائها على أساس الأدوار ، ومن ناحية أخرى تقيم المجتمعات هذه الأدوار ، ولهذا تعتبر بعض الأدوار أكثر أهمية وأكثر قيمة من أدوار أخرى • ويتبع ذلك أن المجتمع يقدر أولئك الذين يشغلون أدوارا مهمة من وجهة نظره • وهذا التقدير الاجتماعى المختلف للأدوار الاجتماعية ، هو الذى أدى الى ظهور فكرة المركز ، ولذلك ينظر الى المركز على أنه الرتبة التى تقرنها الجماعة بدور معين أو مجموعة من الأدوار ، ولذلك تسمى العملية التى عن طريقها يرتب المجتمع الجماعات فى سلسلة متدرجة من المراكز بالترتيب الطبقى أو التدرج الطبقى • والتدرج الطبقى ظاهرة اجتماعية وجدت فى كل المجتمعات الانسانية وقامت على أساس اختلاف أدوار الناس ومراكزهم فى الحياة الاجتماعية • وفى هذا الصدد يقول لندبرج Lundborg ان أساس العضوية فى جماعة هو القيام بسلوك معين متوقع من هذه الجماعة ، ويسمى نمط السلوك المتوقع بالاضافة الى وظيفة معينة (الدور) ويطلق على مبلغ الأهمية المرتبطة بهذا الدور اسم (المركز) ، ولهذا يمكن مقارنة مراكز الأدوار من حيث علوها

أو توسطها أو قلة أهميتها ، ويقول ان كلا من الفرد والجماعة لهما مركز كما لهما أدوار ، ولذلك تسمى مثل هذه الجماعة طبقة اجتماعية والترتيب الطبقى هو صلة الطبقات كل بالأخرى (١) ٠٠

وفى فصل المنظمات الاجتماعية (٢) وجدنا أن المنظمة هى مجموعة من المكانات المرتبة وأن أهم صفة فى هذا الترتيب هى أن هذه المكانات متدرجة فى سلم مكانات ٠

ويلاحظ أن معظم المفاهيم الاجتماعية الرئيسية فى علم الاجتماع الحديث تقوم على أساس من هذه الفكرة ، أعنى فكرة الترتيب فى سلم متدرج ٠ فمثلا مفهوم السلطة Authoroty فى المجتمع يعنى حقا مؤسسا لصنع القرار وتوجيه أفعال الآخرين ٠ ومعنى ذلك أن هناك أشخاصا يأمرون وأشخاصا يطيعون ، ذلك يعنى أن الآمر فى ترتيب أعلى من المأمور ، ويتضح هذا بجلاء فى محاولة فبر Weber تصنيف السلطة فهو يعتبر أن السلطة فى المجتمع على ثلاثة أنواع،الأولى السلطة البيروقراطية القائمة على المناصب الرسمية ، والثانية السلطة التقليدية القائمة على الاعتقاد فى معايير أو تقاليد مقدسة من ثم يجب على الانسان طاعة هذه السلطة مثل سلطة الأب أو الزوج ، والنوع الثالث سلطة الرجل الموهوب وهى سلطة شخص فوق العادى يطاع بسبب موهبته مثل حكمته الواضحة ٠ كل هذه الأنماط من السلطة تقوم على أساس شخص أو أشخاص أعلى ، وآخرون أدنى ، أى على أساس سلم اجتماعى لمستويات السلطة ٠ ولهذا يعتبر ميرتون Merton (أن السلطة هى قوة الادارة والضبط المشتقة من مكانة محددة ومنغرسة فى المنصب وليست فى الشخص الذى ينجز الدور الرسمى ٠ وعادة تحدث الأفعال الرسمية فى داخل اطار العمل المكون من قواعد المنظمة الموجودة مسبقا ٠ ويتضمن نسق العلاقات المرسوم لمختلف المناصب درجة معينة من الرسمية ويحدد بوضوح مسافة اجتماعية بين

---

1 — Lundburg : Op. Cit., P. 415.

٢ ـ يمكن الرجوع الى ذلك فى الفصل الثالث ٠

شاغلى هذه المراكز) (١) • وهذه المسافة الاجتماعية هى الفرق بين درجة فى سلم السلطة وبين درجة أخرى •

بل يعتبر بعض علماء الاجتماع أن فكرة السلطة القائمة على ترتيب معين لأعضاء الجماعة فى شكل سلم اجتماعى لمستويات السلطة هو حجـــر الزاوية فى بناء الجماعة (٢) • اذ يعتبرون أنه لابد من سلطة لتنظيم التفاعل بين أعضاء الجماعة الواحدة وبين الجماعات الداخلة فى تركيب المنظمة ، وعند ذلك فقط يصبح الموقف لـه بنـاء ، بمعنى تصـبح المكانات متمـايزة وواضحة ، وتصبح الأدوار المصاحبة لها معروفة بوضوح ، وينبعث من كل هذا نظام متدرج للسلطة • وخاصة اذا كانت الجماعة تتكون من جماعتين فرعيتين أو أكثر (مثل المنظمات فى المجتمعات المركبة الحديثة ـ حـكومة ـ مصنع ـ شركة) فان بناء السلطة يصبح متدرجا فى شكل يشبه الهرم كثيرا أو قليلا ، يوجد عند القمة شخص أو جماعة صغيرة ثم مستويات من السلطة تتدرج الى أسفل فى شكل خط مستقيم • ذلك يرجع الى أن القوة العـاملة فى أى مؤسسة هى بالضرورة منظمة فى شكل متدرج لأن العمل الجمـاعى يحتـاج الى كل مـن المدير والمدار ، فمختلف المهـارات يختـلف تقييمهـا ومكافأتها •

ويرتبط بفكرة السلطة مفهوم اجتماعى آخر أصبح أساسيا أيضا فى علم الاجتماع الحديث هو مفهوم البيروقراطية Bureacracy ،وقد أصبح له أهمية كبرى فى دراسة المنظمات الاجتماعية فى المجتمعات الحـديثة . والبيروقراطية هى هرم من هيئة المنظمة تتولى ادارة العمل فى المنظمة ، فهى سلسلة من الأدوار المتدرجة لتحديد السلطة والمسئولية • البيروقراطية تقوم على أساس تنظيم الناس فى أى عمل جماعى فى شكل هرم متدرج ، أى

---

1 — Merton, R.K. «Bureacratic Structure and Personality». Etzioni «A Sociological Reader on Complex Organizations» Holt Rinhart and Winston, Inc., New York, 1969. P. 47.

2 — Biesanz : Op. Cit., P. 187.

شكل سلم اجتماعى يوضح مختلف مستويات السلطة فى شكل هرم متدرج أعلى سلطة فى القمة وأقل سلطة فى القاع ٠

ويرتبط بالمفهومين السابقين مفهوم آخر أصبح محوريا فى علم الاجتماع الحديث وهو مفهوم القوة Power فى المجتمع ٠ فالقوة فى المجتمع تتدرج فى شكل سلم اجتماعى فى قمته تلك الجماعة التى يطلق عليها علماء الاجتماع الصفوة Elite وهى تتكون فى كل مجتمع من رجال مراكزهم الاجتماعية تمكنهم من الارتفاع فوق ظروف بيئة الناس العاديين ، ذلك يرجع الى انهم فى مركز صنع القرار ، لأنهم على رأس معظم المنظمات الكبرى فى المجتمع الحديث فهم يديرون آلة الدولة (الحكومة) ويديرون المؤسسات الهامة والكبرى فى المجتمع ، بمعنى أنهم يشغلون المواقع الاستراتيجية للأمر والاملاء فى البناء الاجتماعى (١) ٠

وهكذا فان الترتيب الاجتماعى فى سلم متدرج لمختلف الظواهر الاجتماعية ظاهرة واضحة فى كل نواحى الحياة الاجتماعية ، بل يبدو أن هذه الظاهرة ترجع الى أنها احدى الصفات السيكولوجية عند الانسان ، فنحن فى حياتنا العادية نصنف الأشياء فى سلم سواء فى الجانب اللا مادى أو الجانب المادى من عناصر الثقافة ، فنحن نصنف ملابسنا أيهما أبهى من الآخر ، ونصف الأطعمة أيهما أحب وأيهما أبعد ، ونصنف أصدقاءنا أيهما أقرب وأيهما أبعد ، ونصف الفن أيهما أقرب الى النفس وأيهما أبعد ، ونصف الألوان أيهما أحب وأيهما أبغض ٠ وهكذا الى آخر القائمة التى يمكن ان تأخذ صفحات لو أردنا حصرها ٠

وهنا نلاحظ كيف أن ظاهرة سيكولوجية تتفاعل مع البيئة الاجتماعية فتتولد ظاهرة اجتماعية هى ظاهرة الترتيب فى سلم اجتماعى ٠ ومن ناحية أخرى ان ظاهرة الترتيب فى سلم سواء على مستوى الظواهر الاجتماعية أو الظواهر الفردية ، هى من أساليب تيسير الحياة فمثلا على المستوى

---

1 — C. Wright Mills : « The Power Elite» Oxford University Press, New Jersy, 1966 P. 3—4.

الفردى تجعل أمر الاختيار سهل ، طالما أن ترتيب الأشياء فى سلم ، فأنت تختار ماً هو فى القمة فان لم تجده تتدرج منحدرا الى أدنى وهكذا ، وعلى المستوى الاجتماعى يجعل الأمر أسهل فى التفاعل الاجتماعى فبمجـــرد معرفة موقع ، مثلا ، القيمة فى السلم الاجتمـــاعى تستطيع أن تعرف ما هو مطلوب منك فعـــله ٠

فى معنى النظام الرائد

سننظر الى النظم الاجتماعية على أسس تختلف تماما عن تلك الأسس التى سبق أن صنفنا على أساسها النظم الاجتماعية فهى تمت أكثر الىالترتيب فكما راينا أن المجتمع يرتب الجماعات الاجتماعية حسب أهميتها ، وكمـا راينا أن المنظمات ترتب أيضا المكانات الاجتماعية فى سلم مكانات ، كذلك يرتب أعضاء المجتمع النظم الاجتماعية فى سلم نظامى حسب أهميـة النظام ، فالنظام الأهم فى أعلى السلم ويليه النظام الأقل أهمية ، فالاقل وهكذا ٠ وهذه الأهمية تنبع من التصورات الفكرية عند أعضاء المجتمع ٠ (وما من شك فى أن الفكر على اختلاف مستوياته هو محرك الطاقات المبدعة للجماعات البشرية وهو الأداة التى تحكم وتنظم وتنسق عناصر كياننا الفردى والمجتمعى ٠ وعن طريق الفكر تنصهر التجارب الخاصة والعامة التى تحـــدد دوره ٠ بالتالى فى وجودنا الاجتماعى ليتحقق من جديد التوافق التركيبى والوظيفى أو التوظيفى فى البناء الاجتماعى) (١) ٠

والنظام الذى يعتقد المجتمع حسب تصوراته الفكرية انه أهم النظم ، ويضعه على رأس السلم النظامى ، نحن نسمى هذا النظـام بالنظام الرائد ٠

والتراث الفكرى حافل بما يمكن أن يكون أساسا لتحقيق هذه الفرضية ٠ فمثلا فى المجتمعات البدائية كان الفكر البدائى مصطبغا بصبغة دينية ، ومن ثم كان يرتب النظام الدينى على أنه النظام الأهم ولذلك كان يضعه على قمـة

---

١ ــ د٠ أحمد الخشاب : « التفكير الاجتماعى ــ دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية » دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ٠ ص ٣٦ ٠

السلم النظامى اى جعله النظام الرائد • ولنأخذ من هذه المجتمعات البدائية المجتمع التوتمى مثلا ، فى هذه المجتمعات بتصور أعضاؤهـــا انفسهم اسرة واحدة تنحدر من اب واحد ، وهو فى نفس الوقت الاهم ويسمى توتم Totem ، وقد يكون شجرة او حيوانا او مظهرا من مظاهر الطبيعة كجبل او بركان أو مطر او سحاب او قمر أو شمس • فهم عشيره واحده وقرابتهم من درجـة واحدة فكلهم ابناء التوتم اذ كانوا لا يعرفون أن الولادة هى نتيجة الاتصال بين الرجل والمراة ، ولكن كانوا يعتقدون أن روح التوتم قد حلت فى بطـن المـراة ، فالمولود هو ابن التـوتم ، فكلهم تربطهم عـلاقة قرابة واحـدة هى الأخوة ، ولهذا لم تكن قرابة دمـوية ولكن دينية ، وتتمثل فى اشتراكهم فى نفس العادات والعرف والتقاليد الدينية الخاصة بهذا التوتم • وهكذا نرى أن هذا المجتمع يقوم على فكرة دينية • ومعنى ذلك كما يقول دوركيم (أن الدين هو أهم مظهر اجتماعى فى هذه الجماعات ويصبغ كل ألوان الحيـــاة الاجتماعية من فن واقتصاد وسياسة وكل انماط العلاقات الاجتماعية بلونه الخـــاص) (١) •

وعلى هذا يمكن أن نعتبر أن المجتمعات البدائية كانت تعطى الأهميـة الكبرى للنظام الدينى فترتبه فى اعلى السلم النظامى ، أى تجعـله النظام الرائد لكل الثقافة بما تحتويه من نظم سياسية واقتصادية وتربية وأســاليب شعبية •

واذا نظرنا الى المجتمعات الفرعونية سنجد أنه فى مصر الفرعونية كان النظام الاجتماعى الدينى هو الذى يوجه الحياة الاجتماعية كلها ، فيشـكل طبقا له النظام السياسى والاقتصادى والطبقى • وهكذا كانت الحياة الدينية هى محـور الحيـاة الاجتمـاعية وتصـبغ وتشـكل كل الثقـافة فى مصر الفرعونية •

---

1 — Durkheim, E.: «Les Forms Elementaires de la Via Religieuse» Paris. 1925 P. 151.

فمن ناحية النظام السياسى كان فرعون رئيس الدولة ، هو رئيسها لأنهم كانوا يعتقدون انه من الآلة اى يرتكز على أساس دينى ، وكان فى نفس الوقت يمثل طبقة اجتماعية هو وأسرته هى الطبقة العليا · تليه طبقة اجتماعية أخرى هى طبقة المشرعين والحكام وما جعلها ذلك الا ترتيبها الدينى فهم الكهنة وسدنة المعابد · ثم بعد ذلك طبقة اجتماعية أقل لبعدهم عن المكانات والأدوار الدينية هم العمال والفلاحون · هكذا نظم ورتب النظام الدينى الجماعات الاجتماعية طبقا لمعاييره ·

اما النظام الاقتصادى ، فكانت العمليات الاجتماعية الاقتصادية تدور على أساس دينى ، فالملكية فيه ترتكز على أسس دينية ، فكانت هناك ممتلكات مقدسة لا يجوز للأفراد تملكها وهى أملاك المعابد · وكان الانتاج سواء الزراعى أو الحيوانى تقوده وتحركه المعايير الدينية ، فكان هناك الاهما للأرض (الاله توت) ، وتعمل تحت أمره هذا الاله آلهة أصغر منها الاله (حابى) للرى وكانيمثله شخص مبلل الجسد على رأسه مجموعة من أوراق البردى ، وللأرض الزراعية الاله (سنحت) وتمثله زهرة اللوتس ، واله للحبوب وتسمى (نورى) · وكان للانتاج الحيوانى أيضا آلهته ، فهناك العجل (أبيس) ، وكبش آمون فى طيبة ، والثروة السمكية أيضا لها اله منها سمكة الأقنوم ·

فاذا انتقلنا الى النظام التربوى ، نجد أن التربية كانت تتم فى ظل النظام الدينى ، فكان يقوم بها الكهنة ، وكان الكاهن عندما يفرغ من أعماله الدينية يقوم بتعليم أبناء منطقته ، وفى مكان ملحق بالمعبد نفسه ، كما أن النظام التعليمى الذى كانت تقوم به الدولة كان نظام تعليمى دينى ·

وليس هذا فى المجتمعات القديمة فحسب ، ولكن أيضا عرفت أوربا هذا النظام فى القرون الوسطى حيث سيطر النظام الدينى المسيحى على كل النظم الاجتماعية حتى أن المؤرخين يسمون هذا العصر بالعصر المسيحى أو العصر الكنسى نسبة الى الكنيسة ، فكان النظام السياسى يخضع للكنيسة حتى أن الأمراء والملوك فى أوربا كان يتوجهم البابا الذى كان يستطيع أن يعزل اى أمير أو ملك ، وكذلك كان النظام التربوى تشرف عليه الكنيسة

ولا يعلم فى المدارس الا ما شاءت الكنيسة ، وهكذا كل الحياة الاجتماعية فى أوربا فى العصر المسيحى كان يشكلها النظام الدينى وفقا لمعاييره ٠

وأيضا عرف العالم الاسلامى هـــذا فى العصر الاسلامى منـذ صدر الاسلام وحتى نهاية الخـلافة الاسـلامية ، كان النظام الرائد هو النظـام الدينى ٠ فكان هو النظام الذى يصبغ كل النظم الاجتماعية الأخرى بصبغته ، فالنظام السياسى كان علَى رأسه الخليفة ، واصطلاح خليفة وان كان يعتبر مكانة سياسية الا أنه مفهوم يقوم على أساس دينى ، فهو يعنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى مكانة دينية بالدرجة الأولى وكانت كافة النظم الأخرى تستمد معاييرها من النظام الاسلامى ، فكان الاقتصاد يـدور من خلال المعايير الاسلامية ، وكان النظام القانونى يستلهم الشريعة ، والنظـام التربوى لخدمته الدين وكان العلم لله أولا ، وهكذا كل النظم حتى الحـرب والسلام كانت تحكمها الشريعة الاسلامية التى كانت معاييرها متغلغلة فى كل النواحى الاجتماعية ٠

وسنرى أيضا فيما سيأتى من الدراسة أن المجتمعات المعاصرة أيضـــا يوجد لكل مجتمع من المجتمعات نظام رائد وان اختلف من مجتمع لمجتمـع طبقا لاختلاف اهتمامات المجتمع ٠

وهكذا هنـــاك دائما يكون من النظم العليا نظام رائد يســود المجتمع ويصيغه بصبغته ، كما أن هناك أدلة للتفكير فى أن الترتيب الطبيعى للنظم يجرى من أسفل الى أعلى فى السلم النظامى كما يلى : فى أسفل الأسرة ثم يعلوها النقل ثم الاتصالات ثم الاقتصاد ثم التكنولوجيا العملية ثم الفنـون الزخرفية ثم التربية ثم السياسة ثم العلوم الخالصة والفنون الخـالصة ثم الفلسفة ثم الدين ٠ ومن ثم يكون النظام الرائد هو الأعلى فى النظم العليا ٠

فالدين طبقا لهذا الترتيب هو النظام الرائد لقداسته ونفاسته ، ولكن يصبح السؤال أى دين ؟ ــ (لكم دينكم ولى دين) ــ هل مجرد أى دين يصبح ملائما ليكون النظام الرائد فى المجتمع ٠ مثلا هل نظام دينى يتدهور ملائم أكثر ليكون النظام الرائد لمجتمـع مـن بعض النظم الأخـرى التى تكون فى فترة

ازدهارها وقوتها ؟ ان كان كذلك ، اذن كيف يحدث أن يكون النظام الـذى يعتبر الأكثر علوا فى تدهور ؟ ويلاحظ ان اصطلاح (تدهور) لا يتضمن فى طياته أى معنى للريادة ، فقد يكون ما زال يتمتع بمظاهر شكليات الاحتـرام ولكن لم يعد له قوة ، وفى هذا المعنى يكون النظام قد فقد مكانته كنظـام رائـد ٠

بكل تأكيد ان يوضع النظام الدينى فى غير موضعه ، بمعنى ازاحته من أعلى السـلم ، فهذا يعنى الاقلال من مكانته الاجتماعية ، أى أنه رتب أقل من بعض النظم الأخرى التى وضعت فى مكانته كما فى روسيا السوفييتية والعالم الغربى كله ، وكثير من المجتمعات الاسلامية ٠

عندما النظام الرائد فى مجتمع لا يكون ديانته ، عند ذلك نكون متأكدين أن هناك خطأ فى المجتمع ، وكذلك نسرع لاضـافة ، وخطأ أكبر فى الفـكر والسلوك الدينى لأعضاء المجتمع ٠ ففكرة أن لا شيىء يمكن أن يبرر ازاحة النظام الدينى من مكانه كنظام رائد فكرة خاطئة ، اذ أن وضع النظـام الدينى فى أعلى السـلم مرتبط ليس بالنظام الدينى نفسـه ، ولكن مرتبط بالتصورات الفكرية لأعضاء المجتمع التى رتبت النظم الاجتماعية ٠

ومن أجل شرح أفضـل عن كيفية قيادة النظام الرائد ، وكيف يسود النظم الأخرى سوف ألجأ الى العناصر البنائية للنظام ومن تحليلها نستطيع فهم عملية قيادة النظام الرائد لسائر النظم والثقافة ٠

بنـــاء النظام الرائد

هيئـــة النظـام

تتكون هيئة النظام من قـادة المجتمع ومن ثم يرتبون عـلى أنهم أعـلى شريحة فى المجتمع مثل فرعـون وكهنته فى المجتمـع الفرعونى ، والبـابا وقساوسته فى القرون الوسطى فى أوربا ، ومثل محمد صلى الله عليـه وسلم وصحابته فى صدر الاسلام ، والخليفة ورجاله فى الدول الاسـلامية التى أتت بعد ذلك • ورجال الأزهر فى مصر فى مطلع العصر الحديث حيث كان يلجأ اليهم أعضاء المجتمع كلما أحسوا بجور الولاه ، وهم الذين ولاهم المجتمع قيادته لصد الغزو الفرنسى عندما هرب المماليك من المعركة ، وهم الذين ولوا محمد عـلى ولاية مصر ، وهم الذين قـادوا المصريين فى ضـد الغزو الانجليزى على مدينة رشيد أثناء غياب محمد على وجيشه فى الصعيد لمطاردة المماليك • فهم قادة المجتمع لأن المجتمع رتب النظام الدينى على أنه النظام الرائد ومن ثم كان لهيئته أعلى مكانة اجتماعية •

وهكذا يرفع أعضـاء المجتمـع هيئة النظام الرائد الى أعـلى مكانة اجتماعية ومن ثم يؤدون الأدوار القيادية فى المجتمع • فهم لهم القيادة فى المجتمع أيا كان النظام الذى يخدمونه • فعلية القوم فى المجتمع تتـكون من مديرى النظـام الرائد ، ولقـد كان فى هذه المكانة الاجتمـاعية فى العصر الحديث ملاك الأراضى فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ، ورجال الصناعة فى القرن العشرين فى الولايات المتحدة •

يعتمد النظام الرائد دائما على قـدرته على الاستمرار فى الاختيـار لأعضـاء هيئته بمـا يقـدمه المجتمع من مكانات عـالية للرجال ذوى الذكاء والتصورات والمبادأة والابداع ، فهذه المكانات العالية تصبح عامل جذب لهذا النوع المتفوق من الرجال ، وما أن يصبح الأذكياء أعضاء فى هيئة النظـام يكتسبون الى جانب صفاتهم الشخصية صفات اجتماعية الا وهى القـوة والريادة ، ولكن قليـــــل من الأذكيـــــاء فى قدرتهم المحافظـــة على قوتهم

منفصله عن النظام • كما أنه بقدر ما يكون النظام مقدرا تزداد مكانة أعضاء هيئته علوا وتزداد أهمية أدوارهم • وهكذا يصبح امداد النظام الرائـــد بالرجال الأذكياء أمرا سهلا ويحب بعض علماء الاجتماع بتسميتهم الصفوة Elit • وأصدق مثل على ذلك تجمع الرجـــال الأذكياء حول رسول الله صلى الله عليه وسلم • ويشهد التاريخ بعبقريتهم سواء فى الحكم مثـل أبو بكر وعمر بن الخطاب ، أو فى الحرب مثل خالد بن الوليد أو أبو عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص وغيرهم رضى الله عنهم، وكذلك فى أوربـــا تجمـــع الأذكيـــاء فى الكنيســـة الكاثولوكية فى العصور الوسطى •

عادة يكون لدى الهيئة المسئولة عن النظام الرائد مجموعة من الأهداف التى قد يفقدونها خلال سنوات التحجر والجمود أو التوسع والتمدد • فعادة ينجح الرجال ذوو الاستبصار فى استمالة الأعضاء من الجماعات المكبوتة ، ويقنعونهم بكيفية الحصول على القوة ولكن لا يقولون لهم أبدا كيف يحافظون على هذه الحقائق بعد أن يحصلوا على القوة ، لأنهم لا يعرفون الوســيلة الى ذلك • فمثلا بوسع بشر الايمان بالحقيقة المسيحية ولكن ليس كيفية ادارة مجتمع مسيحى ، (ذلك لحكمة عند الله ، أعتقد أنه لم يكن بعد قد آن الآوان لأن يكون دينا ودولة لأنه ليس آخر الأديان) • وكذلك زعماء الثـورة الفرنسية علموا الشعب ما هى الحقائق الموصلة للقوة ولكن بعد أن حصلوا على القوة لم يعلموهم كيف يحافظون عليها ، فقامت فى فرنسا الثورة تلو الثورة وهكذا ظلت تعانى فرنسا من الاضطراب ما يقـرب من نصف قـرن • وكذلك نشر ماركس آراءا اقتصادية معينة ولكن لم يقل أبدا كيفية ادارة مجتمع شيوعى، وهذا سر ما تعانيه المجتمعـات الشـيوعية من دكتاتورية قاسية وعبـودية مذلة • ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم هو صاحب النظام الوحيد الذى بين كيفية الحصول على القوة وكيفية المحافظة عليها ، أولا فى كثير من آيات القرآن (ولله العـزة ولرسوله وللمؤمنين) (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا) (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) (ان تنصروا الله ينصركم) (ان ينصركم الله فلا غالب

لكم) ، ثم فى الحديث الشريف أكبر بيان لكيفية الاحتفاظ بالحقائق الموصلة للقوة فى قوله صلى الله عليه وسلم (تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنتى) وطالما كان المسلمون متمسكون بالقرآن وسنته كانت لهم السيادة فى الأرض ٠

ويلاحظ أنه فى النظام الرائد يرتب مديرو النظام أعلى من المنتجين ٠ فمديرو النظام هم حكماء النظام وهم أكثر الناس أهمية فى المجتمع وهم الصفوة ٠ ويكون للمنتجين مقام أعلى من بقية أعضاء المجتمع لكونهم فى النظام الرائد ، ويعرفهم المجتمع فقط من خلال انتاجهم ٠ فمديرو النظام فى صدر الاسلام كانوا محمدا صلى الله عليه وسلم والعشرة المبشرين بالجنة، وبعده كان أبا بكر وبقية العشرة وهكذا حتى على كرم الله وجهه ، أما المنتجون فكان منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وقواد الجيوش الاسلامية على مر العصور مثل طارق بن زياد ، الذين عرفوا بجهادهم فى نشر الاسلام شرقا وغربا ، وكذلك ولاة الأمصار الذين أرسوا قواعد الاسلام وأوضحوا عن فضل الشريعة فى قيادة المجتمعات ٠

المعـــدات

مثل كل النظم الأخرى يمتلك النظام الرائد وسائل مادية لمباشرة وظائفه ، ولكن فى حالة النظام الرائد هذه الوسائل المادية تصبح فى المجتمع الرموز symbols أو الأشياء المقدسة ٠ فالحجر المقدس (الحجر الأسود) لم يعد عند المسلمين مجرد قطعة حجر ، وكذلك فقطعة من الصليب المسيحى الحقيقى لم تعد عند المسيحيين مجرد قطعة خشب بل تحولت الى شىء مقدس عندهم ٠

ومن ثم فالنظام الرائد يضع القيمة الرمزية على الشىء فيجعله متفردا ، فالحجر المقدس لم يعد بعد من فئة الاحجار بل شىء مقدس ، حتى ان هذه القداسة تنزع عنه صفة الحجر ، بل أكثر من ذلك ينسى تماما المؤمنين عند تقبيله انهم يقبلون حجرا ، بل يقبلون شيئا مقدسا ٠ وكذلك الصليب عند

المسيحيين لم يعد قطعة خشب بل شيئا مقدسا ، وأكثر من ذلك ان سائر الصلبان قد اكتسبت صفة القداسة بسبب الصليب الحقيقى وليس بسبب انها صنعت من نفس مادة الصليب الأصلى • كذلك المساجد لم تعد مجرد مبان بل أصبحت حرما مقدسا •

ومعدات النظام الرائد لها هدفان مزدوجان ، فهى أولا تخدم النظام الرائد بأسلوب نفعى خالص ، فالمساجد فى النظام الدينى الاسلامى تستخدم لاقامة شعائر النظام ، ومن ناحية أخرى تعمل هذه المعدات كرموز ، كما تضفى على كل المتشابهات قيما رمزية ، فكل المساجد فى مختلف انحاء الأرض لها قيمة رمزية استمدتها من البيت العتيق ومسجد الرسول عليه السلام • ونحن نستخدم الأشياء كرموز بقدر ما نستعملها من أجل ذواتها أى من أجل انها معدات أو أدوات • ولكن فى حالة النظام الرائد لدينا موقف متميز ، اذ أن القيمة الرمزية لمعدات النظام الرائد تميل الى السمو على قيمة المنفعة التقليدية ، بينما فى سائر النظم الأخرى قيمة المنفعة للمعدات أهم من قيمتها الرمزية •

الاجراءات

ما يفعله النظام الرائد فى المجتمع يصبح أهم ما يجب على أعضاء المجتمع عمله • سواء كانت شعائر دينية أو ادارة حكومة أو ادارة الصناعة والتجارة ، أيا ماكان فى المجتمع قد اكتسب اعتقاد المجتمع على أنه الاجراءات المطلوبة سوف ينال تأييد المجتمع وتعضيده • ولمتابعة شعائر النظام الرائد لابد أن تكون مقدسة وتنقى ، فدائما تتضمن اجراءات النظام الرائد شعائر مطهرة مثل الصلاة فهى تطهر المسلم خمس مرات فى اليوم • ولابد ان نتذكر انه فى أى مجتمع ، النظام الرائد يقود ليس فقط بالزام من القوة ولكن لأن النظم الاجتماعية الأخرى والجماعات الأخرى تطلب من النظام الرائد أن يقود المجتمع • فالعادات العربية قد وطنت بحرية واختيار تماما فى كل العالم الاسلامى الممتد من الساحل الغربى لافريقيا الى الحدود الغربية للهند ، فى

دول وثقافات متعددة الاختلاف ، وكل ذلك بسبب أن هذه الديانة قد أصبحت النظام الرائد فى تلك المجتمعات • فقوة النظام الرائد تتحرك وتسرى بالرضا والقبول وليس بالتكليف والجبر •

التنظيم :

يتضمن التنظيم للنظام الرائد كل المجتمع ، كما انه يعطى المجتمع الوحدة المطلوبة • الاحساس بتلك الوحدة يجعل المجتمع يشعر بالراحة ، ومن ثم يصبح المجتمع غير راغب فى ترك أو هجر النظام الذى يؤدى ذلك الدور مهما كانت الظروف المحيطة بالمجتمع ، وحتى لو كان النظام فاشلا ، مثال ذلك ، التماسك الذى أوجده نظام الأسرة ، ثم نظام الأسرة الابوية الكبيرة ، والعشيره والقبيلة ، والمجتمع المحلى فى المجتمعات القديمة ، والذى تقدم نحو التحسن فى المراحل التالية فى ظل النظام الكنسى فى أوربا ، والنظام الاسلامى فى العالم الاسلامى • ففى داخل حدود التنظيم الاجتماعى الذى صنعه كل من تلك النظم الرائدة ، كان المجتمع متوحدا مع ذلك التنظيم •

ليس هذا فقط ولكن أيضا يجهز هذا النوع من التنظيم بالحجج التى تؤيده والتى تبرر وجوده • فمثلا فى المجتمعات الأمية التى فيها النظام الرائد هو النظام الأمى يصنع تنظيما يعطى مكانة اجتماعية للأم بحيث لا يستطيع أحد فى المجتمع أن يدانى مكانتها • وكذلك فى نظام للملكية قديم التأسيس يعطى التنظيم مكانة اجتماعية للملك بحيث لايجرؤ أحد على معارضة سلطته • وهكذا يجعل التنظيم سيادة للنظام الرائد مرتبطة مع المجتمع الذى يسود فيه بطريقة لا يمكن الفصل بينهما •

لنلقى نظرة سريعة على دولة قومية ، أى أمة فى علاقتها مع التنظيم للنظام الرائد •أولئك الذين يعيشون فى دولة قوميةيفكرون فى الحكومة بالضرورة على أنها النظام الأول فى المجتمع • ويلاحظ أن التاريخ يبين لنا أن هذه الحالة ليست حالة ضرورية ، فهناك فترات من التاريخ ، كان الناس يعيشون فى مجتمعات ، ولم تفكر هذه المجتمعات فى أن نظام الحكومة له أهمية

أساسية كما نفعل الآن • النزعة القومية بقدر ما هى تعبر عن نوعية المجتمع ، هى فى نفس الوقت نتيجة لتحرك النظام السياسى الى مكان النظام الرائد • فالقومية تتضمن تعريفا عاطفيـــا لأعضاء المجتمع كجمـــاعة سياسة ،أى الانتساب الى جماعة سياسية هى الدولة ، أو بمعنـــى آخر توجيه القيـــم العاطفية نحو الدولة •

وغنى عن البيان أن الاستعمار عندما جثم على صدر العالم الاسلامى عمد الى احياء النعرات القومية بين أجزاء المجتمع الاسلامى ، وهو يعنى ويقصـد أن يحـرك النظـام السـياسى الى أعلى السلم النظامى فى هـذه المجتمعات ليزيح النظام الدينى من أعلى السلم • لأن الاستعمار يعلم أنـه طالما النظام الدينى فى أعلى السلم ، فان هذا المجتمع الاسلامى سيظل لـه وحدته عن طرين التنظيم الاجتماعى المنبثق من النظام الرائد والمتوحد معه ، فاذا ولد الاستعمار العواطف القومية عند المجتمعات العربية يؤدى ذلك الى تحريك النظام السياسى الى أعلى السلم ، وبالتالى يفقد النظام الدينى ريادته للمجتمع ، ومن ثم يتلاشى التنظيم الاجتماعى الاسلامى الذى يعطى الوحدة للمجتمعات الاسلامية ويجعلها أمة واحدة • والمجتمعات فى حالة تغـير دائم ، ومن ثم تتطور المجتمعات الاسلامية كل على حدة فى ظل نظام رائـد سياسى يؤدى الى تنظيم اجتماعى مرتبط به ، فاذا ما أدى التغير الى اختلاف الأنظمة السـياسية فى كل من المجتمعات الاســلامية ، يؤدى بالتـالى الى اختلاف التنظيمات الاجتماعية فى كل منها • هذه الاختلافات تؤدى ليس الى ضياع الوحدة التى كان يصنعها تنظيم النظام الاسلامى عندما كان نظـاما رائدا بل الى تباعد المجتمعات بعضها عن بعض ، وهذا ما نراه فى عصرنا من صراع بين الدول العربية لأن لكل نظامها الرائد السياسى وتنظيمه المختلف عن الآخر ، وكل حزب منهم فرح بما لديه •

هدفى النظام الرائد

الهدف الأولى للنظام الرائد

الهدف الأولى للنظم هو التسهيلات الواضحة للحياة الاجتماعية • ولا يختلف الهدف الأولى عندما يكون النظام هو الرائد ، حيث ما يزال الهدف هو تسهيل الحياة الاجتماعية •

هناك ظرف واحد يؤدى الى ضعف تنفيذ الهدف الأولى فى حالة النظام الرائد ، اذ يهتم الهدف الأولى لنظام عادى بمعاونة المجتمع ومن ثم يصبح النظام وهدفه تابع للمجتمع ، وهذا أمر عادى فلا يوجد مجتمع ما من أجل نظام خدمة مثل نظام النقل ، اذ لا توجد المجتمعات أساسا من أجل مجموعة القوانين التى أسستها ، ولكن فى حالة النظام الرائد يكون المتوقع هو أن يوجد المجتمع من أجل النظام ، أنه فى حالة النظام الرائد يصبح المجتمع طائعا للقوانين والمعايير التى يؤسسها النظام الرائد • وفى الحقيقة أن المجتمعات وجدت أساسا من أجل انجاز وظيفة النظام الرائد ، فالدولة **الاسلامية** التى أقامها محمد صلى الله عليه وسلم أقامها أصلا من أجل انجاز الشريعة الاسلامية أى القوانين التى أرساها النظام الدينى أى النظام الرائد •

وهكذا يتطلب الهدف الأولى من النظام الرائد السيادة على المجتمع الذى يقوده ، وعندما يكون الأمر كذلك ، تتزايد صعوبة القيادة فى عبارات من التسهيلات الواضحة للمجتمع اذ التراخى أو حتى التساهل فى أداء وظيفة النظام الرائد لا تتلاءم أبدا مع وصف الهدف الأولى لنظام معداته هى الرموز الأساسية للمجتمع ، وتجهز هيئته قادة المجتمع ، والذى يمتد تنظيمه خلال المجتمع كله • ذلك أن التسهيلات الواضحة للحياة الاجتماعية تعنى أنه قد تم انجاز الهدف الأولى بينما النظام نفسه فى الخلفية ، اذ لايبدو منه الا تلك التسهيلات • السؤال الآن كيف يظل نظام رائد فى الخلفية ؟ هنا

يبدو أن لدينا تناقض ، اذ بالتأكيد لا تعنى القيادة البقاء فى الخلفية • الاجابة اذن هى انه لابد وأن هناك أسلوب للقيادة غير ذلك الذى تمارسه سائر النظم الأخرى •

وغنى عن البيان أن النظام الرائد لا ينجح فى ادارة مجتمع لأى فترة من الوقت بعد أن يوجه نقد لصحة أسلوبه فى قيادة وادارة المجتمع • هذه الحقيقة الاجتماعية المنطقية تكشف عن أسلوب النظام الرائد فى القيادة وتحقيق هدفه الأولى أى التسهيلات الواضحة دون أن يكون فى الخلفية فحيث يكون مجتمع فيه العادات الاجتماعية مستقرة ، وحيث كل فرد قبل لفترة طويلة تنظيما معينا للأشياء ، وحيث قد أسس النظام الرائد معاييره وقوانينه واستقرت فى أعماق الذاكرة وأصبحت عنصرا من عناصر الشخصية خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، هنا تظهر تلقائيا التسهيلات الواضحة التى تنشأ من نقص المقاومة لاملاءات وأوامر النظام الرائد،ومن الاعتقاد الكلى الراسخفى أعماق الشخصية وعند الجماعات الاجتماعية فى أحقية النظام الرائد فى القيادة ، ولا ينبع ذلك من مجرد التسهيلات الواضحة كما فى سائر النظم •

ونتيجة أخرى من الحقائق السابقة وهى أن النظام الرائد ينجز الهدف الأولى فقط عندما يقود بدون مزاولة القوة ومع تسهيلات واضحة تترك كل نظام آخر ليعمل كما يجب أن يعمل ، كما لو لم يكن هناك تدخلا من ناحية النظام الرائد على الاطلاق ، وتحت هذه الظروف يقود النظام الرائد بسبب أن النظام نعمة مهداه ، وليس بسبب أنه يملك القوة •

الهدفان الثانويان للنظام الرائد

نحن نعلم أن الهدفين للنظام هما أن يحيا وأن ينمو • نحن الآن نواجه نفس الهدفين ولكن هذه المرة الهدفان الثانويان هما للنظام الرائد ، مرة ثانية الموقف معقد بدرجة كافية تدعونا لاجراء مناقشة اضافية •

لكى يحيا النظام الرائد بطريقة تخدم الهدف الأولى،يحتاج النظام الرائد أن يحتوى كل المجتمع • وهذا الاحتواء يتضمن فى طياته النظم الأخرى أيضا ،

ولكن أن يتضمن النظم الأخرى لا يعنى ذلك أن يقلل من ادائها لوظائفها أو يعوقها • ان النظام الذى يسود المجتمع ليعوق النظم الأخرى لهو نظام ينم عن شيءمن الضعف حتى ولو نجح فى سيادته للمجتمع • انما نجاح النظام الرائد الحقيقى يكمن فى أن يكون قوة تمنح مزيدا من القدرة للنظم الأخرى فى ادائها لوظائفها ، فوظيفة النظام الرائد ليس طمس النظم الأخرى ولكن سيادتها وقيادتها ، وأحد أهم أوجه القيادة هو معاونة ما يقوده من النظم أثناء ادائها لوظائفها • ذلك يرجع الى حقيقة أن النظام الرائد هو نظـام فقط وليس مجتمعا كاملا • فغرض النظام الرائد هو أن يرى أن هدفه الأولى تحقق وساد خلال المجتمع كله فاصبح هو قائد النظم • وليحيا فان نظامه لابـد أن يصبح النظام الاجتماعى ، وقيمه هى القيم الاجتماعية ، ومن ثم يبتدىء أن يكون له بل ويتمتع بكثير من العلاقات الخارجية الهامة مع النظم الأخرى بل والثقافة كلها ، وكما نتوقع يكون لمثل هذه العلاقات الخارجية صدى فى داخل النظام الرائد نفسه • وبينما عادة يكون هناك صراع فى النظم الأخرى بين اعضاء هيئة النظام ، أى بين المديرين المنتجين حول مسألة مصالح كل منهما ، ولكن للعلاقات الخارجية الخاصة بالنظام الرائد مع النظم الأخرى تأثير آخر هو المصالحة بين المديرين والمنتجين • ذلك يرجع الى أن المقام والقوة فى المجتمع التى تعتبر امتيازات النظام الرائد هى أشياء يرغب النظام فى المحافظة عليها ، ولن يستطيع فعل ذلك الا بالعمل فى داخله على وجـود حالة من الانسجام ، ومقدما بذلك واجهة قوية للنظم الأخرى •

هناك ناحية أخرى للمسألة ، لنتذكر معا أن النظام الرائد هو التنظيم الاجتماعى للمجتمع ، ومن ثم فلديه أحسن فرصة للحياة ، اذ يمكن القـول أن حياته يؤكدها نجاحه ، وعلى هذا فليس هناك حاجة للكفاح من أجل هـذا الهدف ، طالما انه شيء قد انجز فعلا •

وعلى هذا فالنظام الرائد ليس لديه كمشـكله الأول من الهـدفين أى الحياة ، فليس أن يهتم كنظام بمشـكلة أن يحيا • ولهـذا يمـكن أن يكرس النظام الرائد كل مجهوداته ونشاطاته لتحسين واجادة الهدف الثـانى من

الهدفين أعنى ، النمو • ولكن النمو هدف شرعى ومنطقى للنظام الرائد ، وهذا يتيح له ميزة أخرى على منافسيه من النظم الأخرى • بل وقد ينجح النظام الرائد فى الاحتفاظ فى كهولته بأحد الفضائل على الأقل ، والتى لا يمتلكها معظم النظم الأخرى الا فى شبابها وفترات ازدهارها ، الا وهى الانسجام الذى ينجم عن ملكيته وتكريس جهوده لهدف واحد فقط الا وهو النمو •

ويلاحظ انه عندما يتأكد النظام الرائد من الحياة وأيضا من النجاح • وحيث قد تأكد من وجهة نظره هو أنه قد حقق أهدافه ، عند ذلك يظهر النظام نوعا من التصلب rigidity • اذ يحصل النظام على الكبرياء والعظمة تلك الصفات التى عادة نلصقها بالأشخاص الناجحين ، ومن ثم يبتدىء فى ممارسة صفات النزعة المطلقة ، وهنا يدخل فى الصورة الخطأ المعروف للنزعة المطلة ، التى تعمل على صب الأفعال والاتجاهات لأعضاء المجتمع فى قوالبومن ثم تصيبهم بالجمود ، فلا مبادأة ولا ابداع • وتصبح قصة نمو النظام الرائد هى قصة زيادة تأكيد الذات Self-certainty ، اذ أن أعوامه السابقة وأنماط السلوك المتكررة والتى تصبح معروفة على أنها معايير والتى تدعو الى الاطمئنان لتبريراتها وتفسيراتها الأخلاقية ، وتعطيها وتضمن لها كل الاعتقاد ، وأيضا القبول من الأجيال السابقة ، كل هذا يعتبر مواثيق حية ضد وقاحة أو غدر أى نظام منافس قد يسعى الى معارضة سلطة النظام الرائد •

وأكثر من ذلك يدخل فى الصورة أيضا خداع النزعة التاريخية ، فيتحول فى أيدى النظام الرائد الى أحسن مستنداته ووثائقه المؤيدة له ، اذ أن ما استمر فى الوجود قائدا أطول مدة هو بالضرورة له القيمة الأعلى • وهكذا يختلط المنطق بالتاريخ ، مما سبق أن عمل من أعمال جليله يستدعى ليبرر ما يفعل ويسانده •

ويلاحظ أنه لكون النظام الرائد فتؤكد وواثق من ممارساته رغم اتصافها بالجمود ، ذلك يرجع لعظم درجة قبوله من المجتمع ، وان كان هذا يشكل خطرا

على رفاهية المجتمع • فالنظام الرائد أصبح كذلك أى له هذا المقام لأن الناس نما ورسخ لديهم اعتقاد ان النظام الرائد ليس فقط يستطيع عمل الأشياء الحسنه ، ولكن لأن لديه أحسن ما يمكن أن يفعل من الأشياء ، وأن هـذا الاعتقاد كان عميقا جدا الى درجة أن الناس قد نسوا الأسباب التى ادت الى اعتقادهم هذا وآرائهم تلك •

والملاحظة الهامة التى تفصح عنها كل هذه المناقشة ويجدر التنبيه اليها هى أنـه مهمـا كـان النظـام الرائد قويا ، فانه ليس أبـدا النظام الوحيـد فى المجتمع ، فاذا كان هو النظام الرائد فانه كذلك بسبب مركزه النسبى بين النظم الأخرى • انه ممكن أن يقود ولكن فقط اذا كان هناك نظما ليقودها ، ولهذا فهو يعتبر نظاما رائدا ليس الا بسبب علاقته بالنظم الأخـرى ، وانه نفسه نظام بين النظم الاخرى •

العلاقات بين النظم

التفـاعل : INTERACTION

تقوم النظم بوظائفها معا فى بناء يتضمن التأييد المتبادل بينهم ، والا فان المجتمع ككل سوف يكون مستحيلا • فالنظام الاقتصادى يساند النظام التربوى اثناء ادائه لوظائفه ، فهو يمده بأبنية المدارس والمعامل والكتب المدرسية وكل ما تحتاجه العملية التربوية من مصنوعات لتسهيل عمل النظام التربوى ، والعكس صحيح ، فالنظام التربوى يساند النظام الاقتصادى بمده بأعضاء المجتمع المؤهلين علميا للعمل فى مجالات الاقتصاد المختلفة مـن زراعة وصناعة وتجارة •

وكما لاحظنا هناك نظم معينة المسماه نظم خدمة والتى وظائفها خدمة النظم الأخرى ، ومن بين نظم الخدمة : النقل والاتصالات والاقتصاد والتربية والسياسة • ويعتبر نظامى النقل والاتصالات من أحسن الأمثلة عـلى نظم الخدمة • فتسليم بريد من شخص لآخر أو من منظمة لأخرى ، أو حتى توصيل أشخاص أو اشياء مادية من مدينة لأخرى ، كل ذلك ربما يخدم الأهداف النظامية لنظام كالأسرة • كما يعتبر الاقتصاد الذى يهتم كلية بتبادل السلع والخدمات ، هو نظام خدمة أساسى ، ومن ثم فطبيعته الخاصة الانشـغال بتسهيل وظائف النظم الأخـرى • وفى الحقيقة أن عمـل النظـام الاقتصادى مهم ، حتى أن بقية النظم الاخرى قد كرست بداخلها نظما فرعية للصـلة بين أى منها والنظام الاقتصادى فالأسرة مثلا تعتبر ضعيفة التنظيم ان لم يكن لها ميزانية ، كما انه لا يمكن أن توجد مدرسة بلا جهاز للحسابات ، والحكومة التى ليس لها خزانة حسنة الادارة تصبح فاسدة • فنظم الخـدمة وجدت لتجعل من الممكن للنظم الأخرى اداء وظائفها فى سهولة ويسر ، دون أن يكون لها غرض التدخل فى أهدافهم •

ومن ناحية أخرى قد يتضمن فعل اجتماعى وجوها لعدد من النظم ، لتفترض أن زوجين تزوجا فى مجتمع يمارس فيه ظاهرة المهر ، ان هـذا الفعل يتضمن فى طياته النظم الآتية ، الأسرة والقانون والاقتصاد والنقـل والاتصالات والفنون والعلوم التطبيقية ٠

كما يحدث التفاعل عن طريق الأفراد ، فهم عادة أعضاء فى أكثر من نظـام واحد ، فالانسان عادة ممارس فى النظام الذى ينتسب اليه اجتماعيا ومشارك فى معظم النظم الأخرى فى المجتمع ، فمثلا المدرس يشغل مكانة فى النظام التربوى ، ولكنه يؤدى أدوارا عديدة أيضا الى جانب دوره الأساسى ، فهو عضو فى أسرة ويذهب الى المسجد ويستهلك سلعا ويكتب خطابات ويسافر ٠

وهكذا نرى أن تفاعل النظم الاجتماعية هى حقيقة اجتماعية ولابد أن تؤخذ فى الحسبان كأحد أهم عوامل البناء الاجتماعى ٠ ولكن ما نـريد أن نسأله الآن ونعرفه ما هى الطبيعة الخاصة للعلاقة بين النظم ٠

النظم مثل كل الأنساق الدنياميكية الأخرى ، هى كليات تتوقف عـلى تنظيم الأجزاء ٠ حقيقة اننا عندما نتعامل مع الكليات نتعامل معها ككليات ، ولكن دائما عن طريق الأجزاء المسئولة ، لأن الأجزاء هى وكلاء الكل ، مثـل عندما نحيى الانسان ككل نحن نرمز لذلك بالسلام باليـد وهى جـزء مـن الرجل ، وكما نحيى دولة أجنبية فى عيد استقلالها مثلا عن طريق سفارتها ٠ ومن ثم فالتفاعل بين النظم كلها يحدث خلال الاحتكاك بين أجزائها ، سواء أكانت أقسام أو وكلاء أو عناصر أو أيا كان ٠ فعندما يبيع مندوب شركة أدوات نظافة لربة أسرة عند باب مسكنها مكنسة مثلا ، يكون لدينا مثل عن وكيل نظام اقتصادى ووكيل نظام الأسرة فى احتكاك فى أسلوب قد يؤثر على كل من النظامين ، ولو أنه لم يحدث الاحتكاك بين كل النظام الاقتصادى مـع كل النظام الأسرى ٠

انه من الصعب تصور التخلل المتبادل matual permeated بين النظم أو ما يحب أن يسميه بعض علماء الاجتماع بالتداخل internalization ولو ان مثل هذه الظاهرة بلاشك موجودة ، فمثلا عنـدما وجهات النظـر

الدينية لكل أعضاء نظام تربوى ، جامعة مثلا ، تتطابق مع النظام الدينى الاسلامى ، نحن نقول ان نظام الدين الاسلامى قد تخلل النظام التربوى ، فالعلاقات المتداخلة interrelationshep بين النظم توضح مثلا لماذا المنظمات المعبرة عن المثل النظامية والتى تقوم بأعباء عمليات النظام نادرا ما تستطيع ضبط سلوك أعضائها بطريقة متطابقة تماما مع المثل النظامية • فمثلا المدارس قد تعطى منهجا مثاليا لكل التلاميذ ، ولكن ردود فعل التلاميذ تعتمد على عوامل عديدة خارجة عن ارادة النظام التربوى ، فالأطفال الذين من أسر تعنى بمتابعة دروس المدرسة فى المنزل يكون تأثرهم بالنظام التربوى غير الأطفال الذين يعيشون فى أسر لا تهتم بمتابعة أعمال المدرسة بل تميل الى المزاح ، ويشغل التليفزيون كل وقتها • ذلك يرجع الى أنه (لا يوجد نظام فى فراغ • فلا يستطيع الانسان فهم نظام اجتماعى الا اذا درس علاقته مع بقية النظم • النظام الدينى والحكومى والاقتصادى والتربوى والأسرة كلها توجد فى حالة مستمرة من التفاعل المتبادل • فظروف العمل تؤثر فى عدد الناس الذين يشعرون بقدرتهم على الزواج ، ومعدلات الزواج والمواليد تؤثر فى طلب السلع) (١) •

والآن قد يكون سؤال لطيف أن نسأل الى أى مدى يحدث التفاعل بين النظم ؟ هل يعتبر الاتصال بين العناصر الأربعة هو الكمية الكافية ؟ أو هل يتراكبان ويتداخلان بعضهم فى بعض والى أى مدى ؟ أو هل يكون التخلل كلى ؟ أو أن هذه البدائل المختلفة يتطلبها تفاعل خاص بين النظم ، لأن بعض النظم أكثر قربا ومن ثم أكثر احتكاكا من الأخرى ؟

بلاشك ، ممكن أن يكون هناك درجات من التفاعل النظامى أكثر مما ذكرنا • فمحتمل أن يكون نظامان متشابكان حتى أنه يصبح من الصعب فصلهما ، أو أن يكون اتصالهما طفيفا جدا أو سريع الزوال • المثل عن النوع الأول المتشابك جدا يمكن أن يكون مدرسة مسجد ، وعن النوع الثانى الطفيف السريع الزوال وصف العلم الخالص فى عبارات من الفن الخالص ،

---

1 — Horton and Hunt : Op. Cit., P. 173.

كما فى قصة تكتب عن اكتشاف علمى · وبلاشك أيضا ، يحدد نموذج التفاعل الى درجة ما صفات النظم المتضمنة فى التفاعل ·

يلاحظ أن كل المناقشة السابقة عن التفاعل كانت بين نظامين فقط · ماذا نتوقع عند دراسة التفاعل بين ثلاث نظم مرة واحدة أو أكثر من ثلاثة ؟ المشكلة الرئيسية هنا ، ما هى الحقائق ، هل تتفاعل النظم فى مجموعات من ثلاثة أو أكثر ؟ هل نحن ندرس مواقف فعلية أو مجرد احتمالات ظنية فقط ، عندما نضع مثل هذه الاسئلة ؟ يصبح أولا علينا أن نحدد الهدف الخاص لبحثنا ·

أليس حقا أن المجتمع من ناحية المستوى الأول التحليلى يعتمد على مجموعة من النظم معا ، بالاضافة الى العلاقات بينهم ؟ وما هى هذه العلاقات وخاصة أنها تتضمن التفاعلات الديناميكية ؟ وهل هذه التفاعلات الديناميكية هى فقط التى بين النظم وبعضها ، وماذا اذن عن التفاعلات التى تحدث داخل النظام بين أجزائه ، وهذه الحقيقة ذاتها قد تؤثر فى النظام رغم عدم حدوث تاثير معين من خارج النظام · وهكذا نحن نواجه عند دراسة التفاعل مشاكل عن البناء والوظيفة وعن العلاقة بين النظم وعن النظم نفسها ، لأنه عندما نتحدث عن العلاقة بين النظم قد يكون ما نتحدث عنه هو من الطبيعة الخاصة للنظام ، فنظام الأسرة مثلا يكاد يكون له علاقة بكل نظم المجتمع من قانونيه واقتصادية وسياسية وجمالية واتصالات وهذا يرجع الى الطبيعة الخاصة لنظام الأسرة · ومن ثم يمكننا القول دون التجنى على الواقع الاجتماعى ، أن التفاعل هو النشاط الذى استلزمته العلاقات بين النظم فى بناء اجتماعى ، قد صاغه ذلك التفاعل ، وأن النظام هو بؤرة مثل هذه العلاقات ، بل وقد يكون النظام غارقا فيها تماما ·

وفى الحقيقة أنه لا يمكننا فهم المجتمع كتجمع مرتب من علب مقسمة متجاوره ومحدده تماما · ذلك يرجع الى أن كل نظام اجتماعى هو باتساع المجتمع ، اذ يمتد كل نظام منهم من حدود المجتمع الى حدوده الأخرى فهل هناك أى ركن من المجتمع لم يصله النظام الاقتصادى مثلا ، أو

الاتصالات ؟ بل انه من الصعب حتى تصور ما يمكن أن يكون عليه هذا الاتساع • اذن كيف نفصل بين مختلف أجزاء هذا النسيج ونقسم المجتمع الى عناصره المكونه ، ونفرن مختلف النظم ونقسمها طبقا لوظائفها ، كما أنها ليست أجزاء من المجتمع ، ولكن تنظيمات مستقلة بدون تفاعل ، ومن هذه الحقيقة نستطيع أن نقرر دون خطأ ينكر أن أى دراسة اجتماعية هى بالضرورة دراسة بنائية أى نأخذ فى اعتبارها ذلك التشابك بين النظم ، لأن الذى يواجهنا هو موقف ديناميكى •

ذلك لا يمنع ولا يعنى أن النظم ليس لها استقلالها أيضا ، أى لها استقلال ذاتى Institutional Autonomy ويرجع ذلك أنه لا توجد هيئة نظام ترغب فى الاستسلام أى الخضوع لأى من النظم الأخرى • بل وفى نفس الوقت يبحثون عن التأثير ان لم يكن سيادة الناس المنتمين للنظم الأخرى • ففى كل النظم الأساسية قد نمت أنماط من السلوك تهدف الى حفظ درجة من التساند ، وتمنع سيادة الأشخاص الذين ينتمون الى نظم أخرى •

الصراعات

CONFLICTS

قد تنشأ الصراعات بين النظم أثناء التفاعل ويحدث ذلك بدرجات متفاوته عن أحد الظروف الآتية :

التعدى Infringement

قد يقع التعدى من أحد النظم على حقوق نظام آخر بعدد من الأساليب ، بعضها طفيف ، مثل افتراش بائع ماكولات حديقة جامعة رغم أنه مكتوب لافته (حافظ على الحشائش) يشتمل هذا على تعد من النوع الطفيف • انما التعدى الجسيم يوضحه محاولة بعض النظم أخذ حقوق النظم الأخرى بأساليب حادة ، مثل ما يحدث كثيرا فى البلاد الغربية عندما يحاول اتحاد المنتجين (نظام اقتصادى فرعى) أن يؤثر فى قرارات الحكومة أو حتى يديرها لتحقيق مصالحه •

وعادة النظم فى حياتها اليومية معرضة للأحداث ، حتى أنه لا يحدث فقط بعض التعدى على الحقوق ، بل أيضا يحدث أنواع عديدة من الكفاح الضخم من أجل القوة ، ذلك يحدث نتيجة التقارب بين النظم فى المجتمع •

وغالبا يقع الكفاح بين النظم ولكن الحالة الأشد تطرفا والتى تؤدى الى الصراع تلك التى تحدث فى داخل مستوى نظام واحد ، بمعنى بين المنظمات المكرسة لنفس الأهداف النظامية ، فمثلا كل من البريد والتلغراف منظمتين أو نسقين فرعيين داخل نظام واحد هو نظام الاتصالات فيقع التعدى من كل من المنظمتين على الأخرى ، فالتلغراف يطلق شعار (لا تكتب ارسل تلغراف) ويطلق البريد بدوره شعارا مقابلا (لا ترسل تلغرافا بل اكتب) فكل يعوق الآخر فى أدائه لوظيفته ومن ثم يفشل نظام الاتصالات فى أداء وظيفته طالما وقع الصراع بين منظماته • وكذلك مثل ما يحدث داخل شركة كبيرة من

صراع بين ادارات الشركة المختلفة ، فادارات الشركة هى أنساق فرعية كل مكلف بانجاز وظيفه جزئية ، وجماع هذه الوظائف وتعاونها وتساندها هو الذى يمكن النظام من انجاز هـــدفه ، فاذا وقع الصراع بين أنســـاق النظام الفرعية ، تعوق كل الأخرى عن أداء وظيفتها ومن ثم لا يتم انجـــاز وظيفة النظام ، أو تتم فى أسوء حالة ٠

المنافســـة Competition

المنافسة هى الكفاح بين النظم من أجل التفوق ، وهى عادة تأخذ شكل كفاح قوى ذى أهمية كبرى ٠ مثل ما حدث فى القرون الوسطى فى أوربـــا من منافسة بين الكنيسة والدولة ، ومثل ما يحدث الآن فى العالم الغربى من منافسة وخاصة فى كل من الولايات المتحدة وألمانيا الغربية واليـــابان وفرنسا من كفاح بين الحكومة أى النظام السياسى والأعمال أى النظـــام الاقتصادى ، فتدخل الحكومة فى المشاريع يقاومه رجال الأعمال بشـــدة ، فأولئك الرجال يصرون على أن المشاريع الاقتصادية ليست من عمل الحكومة ، بينما إذا ظهرت منافسة خارجية لسلع مشاريع رجال الأعمال فمن الغريب أنهم يصرون على تدخل الحكومة لوضع تعريفة جمركية لحماية أعمالهم ٠

هل الحروب هىحالات متطرفة منالمنافسة بين النظم أو بين المجتمعات ؟ انه يبدو أن كلا منهما ممكن الحدوث ٠ بالتأكيد أنه عندما تعـــلن الولايات فى داخل ثقافة واحدة الحرب كل على الأخرى أنه يمكن النظر الى هذا على أنه نوع من المنافسة النظامية ، مثل الحرب الأهلية التى حدثت فى الولايات المتحدة بين الشمال والجنوب ، وكذلك الحروب بين الامارات الاســـلامية فى الأندلس التى ادت الى سقوط الأندلس فى يد الفرنجه ، وكذلك الحروب الدينيـــة فى القـــرن الســـادس عشر فى أوربا بين البروتستانت والكاثوليك الرومان ، كانت بالتأكيد بين نظم الديانات المتنافسة ٠

المنافسة بين النظم من أجل الســـمو والتفوق يوضـــحه الكفاح بين الديانة والحكومة ، فلقد كسبت المسيحية التفوق والانتشار بفضل ضـــعف

الأباطرة الرومان ، ثم ضعفت عندما دخلت فى صراع القوميات الناشئة فى أوربا والتى انتصرت فى النهاية وأصبحت الديانة تابعة للدولة فى كل دول أوربـا

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام وهى أنه عند نشأة نظام تقع المنافسة بينه وبين النظم الأخرى الموجودة فعلا فى المجتمع ، بل ويقـابل بالقـوة المتناسبة مع تزايد نمو النظام الجديد ، اذ يعنى تزايد نمو النظام الجـديد تزايد أثره فى المجتمع ، ومن ثم يقابله بالتالى تزايد كبر حجم المقـاومة من النظم المستقرة فى المجتمـع • اذ يعنى تزايد تأثير النظام الجـديد تـزايد ما يجريه من عمليات التغير فى أسلوب التفكير والعمل عند أعضاء المجتمع ، وخير مثال على ذلك هو نمو النظام العلمى فى أوربا ابان سيطرة الكنيسـة على الفكر الأوربى ، وابتدأت منافسة العلم لأنكار الكنيسة ، مما أدى الى زيادة مقاومة الكنيسة المهددة مراكزها • واشتدت المنافسة ، وقتل النظام القديم قواد النظام الجديد بغض النظر وبدون تفكير فى فضائل النظـام الجديد • وكذلك النظـام الجديد لا يمتنـع عن أن يجهز للمعركة شـهداء يدفعون ثمن النجاح الجديد ، فمايكل سرفيتس Michael Servetus لم ينقذه من الحـرق فى جنيف ١٥٥٣ ميـلادية اكتشـافه الدورة الدموية ، ولا الحقائق التى اكتشفها لافوازيه Lovoisier التى قدمت للكمياء أجـل الخدمات أنقذته من الجلياتين فى باريس سنة ١٧٩٢ م • وتاريخ النظـام الدينى الاسلامى عند نشأته قدم آلاف الشهداء الابرار فى صراعة مع نظام الوثنيـــة •

وهكذا فان لم تتزايد تبعا لذلك قدرة النظام الجديد على التنظيم والبناء اى التماسك الداخلى وتنمية أنماط من السلوك هدفها المحافظة عـلى هذا التماسك فانه لن يثبت للمقاومة • ذلك أن زيادة التوترات الناجمة عـن عمليات التغير التى يجريها ظهور النظام الجديد بتزايد نجاحه يؤدى الى زيادة عمل ميكانزمات الدفاع فى النظم الاجتماعية القائمة فى المجتمع • اذ أن ظهور نظام جديد يؤدى بالضرورة الى حالة من عدم التوازن والصراع

بين النظم الموجودة والنظام الناشىء ، وتنشأ التوترات والصراع بين النظم . وتحاول النظم القديمة اجراء عملية التوازن وقد تكون بأساليب تتميز بالقهر • كما حدث من كفار قريش من اضطهادهم للمسلمين ثم محاولة قتل الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة •

الالتواء DISTORTION

الالتواء هو الصراع الذى يحدث عندما توضع النظم فى غير موضعها أى ترتيبها الصحيح ومن ثم تندفع الى الصراع كل مع الأخرى • هناك سلم طبيعى للنظم ، ويمكننا رؤية بعض الأمثلة حيث ينتهك هذا الترتيب • تأمل مثلا النظم التى يفترض وجودها من أجل خدمة نظم أخرى ، والتى لهذا لا يمكن أن تكون نهايات فى ذاتها • النظم الاقتصادية والاتصالات والنقل هى نظم خدمة ، فهى توجد من أجل تهيئة أهداف نظم أخرى ، لأن الناس لم توجد فقط من أجل ارسال خطابات أو أن تحمل من مكان الى مكان ، ولا أيضا وجدوا من أجل السلع ، لأن السلع وجدت من أجل الناس • عندما نظم الخدمة تعمل كوسائل نحو بعض الأهداف تصبح مهمة جدا فى المجتمع . ولكن أن تتحول لخدمة نفسها كأهداف لابد بالضرورة أن تندفع الى الصراع مع النظم الأخرى • فمثلا فى الولايات المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين هدد نظام النقل المجتمع ، اذ حاول أن يصبح هدفا للحياة عند بعض الجماعات ، وأصبح جزء غير متناسب من دخلهم يذهب فى شراء وحفظ السيارات مما أدى الى انهيارات فى كثير من الأسر • ومثل آخر على الالتواء هو أنه فى أوربا يعتبر النظام السياسى أعلى فى السلم من النظام الدينى منذ القرن السادس عشر ، ولكن فى فترات كثيرة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية حاولت التدخل فى السياسة وحاولت قيادة الجانب السياسى من الحياة الاجتماعية ، ولكن لم يتحقق غير الفشل والاستسلام وصار مثلا فى أوربا أعط ما لقيص لقيص وما لله لله •

الالتواء هو شكل متطور من المنافسة بين النظم ، وهى تدل على أن نظاما التوى بعيدا عن مكانه الصحيح فى المجتمع ، وأصبح يهدد مكانة

بعض النظم الأخرى ، ومن ثم تدخل فى صراع جاء معها · ومثال ذلك عندما أصبح أصحاب مهنة الطب كمهنيين أقوياء بدرجة كافية حاولوا التاثير فى السياسة عن طريق الاتحاد الطبى الأمريكى · أن يكون الأطباء كأفراد مواطنين عليهم أن يشاركوا فى الحياة السياسية هذا أمر طبيعى فى الديموقراطية · ولكن أن يعمل اتحادهم كجماعة ضاغطة ذات ميزانية كبيرة تكرس لهدف التاثير فى السياسة يعتبر شيئا آخر يوضح خروج اتحاد الأطباء كنظام اجتماعى عن مكانه الصحيح وأصبح يهدد النظام الاجتماعى السياسى · ومثل آخر هو الرشوة للموظفين العموميين عن طريق رجال الاقتصاد للحصول على أهداف عادة على طرفى نقيض مع المصلحة العامة ، هنا النظام الاقتصادى التوى عن وضعه الصحيح كنظام خدمة وأصبح يهدد أمن الحكومة (نظام سياسى) بل والمجتمع أى جميع النظم ·

الاغتصاب USURPATION

المرحلة الأخيرة فى سلسلة الصراعات بين النظم هى الحالة المتطرفة التى يضعها الاغتصاب · فى بعض الأحيان يحدث من نظام واحد فى داخل ثقافة محاولة التغلب على كل الثقافة · وهناك أمثلة على ذلك ، ففى الاتحاد السوفييتى جعلت الحكومة من نفسها المنبع الوحيد للسلطة والقوة فى المجتمع الروسى ، حتى أن الحكومة اغتصبت حقوق نظام الفن فقررت ما هى الموسيقى الحسنه وما هى السيئة · والمجتمعات ذات النظام الواحد تميل الى التحجر . فهى اذا كانت تدعى النجاح فى الحصول على التنظيم ، ولكن كان ذلك بلاشك على حساب النظم التى نظمتها ، وبهذا الأسلوب تكون قد أغلقت النظم الأخرى وأفقدتها كفاءتها على القيام بوظائفها ·

وربما أقدم وأكثر النماذج المألوفة للاغتصاب ذلك الذى يحدث عندما نظام تنظيمى كالحكومة يحتوى المجتمع ويصبح أكثر النظم أهمية فى ذاته · وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى ملكيات أصحاب الحق الالاهى عندما كان الملك يعتبر نفسه من أصل الاهى ، فكان الملك يملك قوة الحياة والموت على رعاياه ، وقد سادت هذه الظاهرة ملكيات أوربا فى القرون الوسطى ،

وكذلك نفس الظاهرة حدثت فى المانيا النازية والحكومات الشيوعية ، حيث تعتبر الحكومة نفسها غاية فى ذاتها ، أى فوق مستوى الأخطاء فهى دكتاتورية • عند ذلك يكون لدينا نتيجة قبيحة جدا ، اذ تصبح الحكومة هى المجتمع ، بمعنى أن تجعل الحكومة المجتمع فى خدمة أهدافها ، هذا اغتصاب واضح لأن المجتمع هو الأصل ، وما الحكومة الا نظام خدمة وجد لخدمة المجتمع •

كما أنه من الخطأ افتراض أن المجتمعات التى تبدو من وجهة نظرنا غير قادرة على تنظيم أو حكم نفسها كانت حقيقة غير قادرة ، مثل المجتمعات البدائية أو المجتمعات القبلية ، اذ تكون تلك المجتمعات قد صبت مصالحها واهتماماتها فى نظم أخرى • ففى المجتمعات البدائية كان التنظيم الدينى ينظم مصالحهم واهتماماتهم •

السؤال الآن هل فى المجتمع المثالى لابد وأن تكون الحكومة هى الأعلى ؟ فى الحقيقة يبدو أن العكس هو الأصح • لأن الحكومة هى نظام تنظيمى ، وتقوم بوظيفتها على أحسن وجه عندما لا تغتصب القيم العليا ، ولكن تعمل على تيسيرها • معنى ذلك أنه فى المجتمعات الاسلامية الحكومة التى تطبق الشريعة تيسر القيم العليا ، ومن ثم تكون الحكومة هنا نظام خدمة ، والعكس صحيح •

وفى الحقيقة أن المجتمعات لابد أن تكون متسعة بدرجة كافية للتوفيق بين التناقضات ، وأن تحتوى على منافسة بين النظم مثالية ومشروعة • فالنظم العسكرية فى معظم مجتمعات العالم الثالث التى نشأت فيها وحاول النظام العسكرى احتواء المجتمع أن تحول الى دكتاتورية أدى الى ضمور النظم الأخرى مما عوق عمليات التنمية فى تلك المجتمعات • ذلك أن نزعة الحرية تعنى التسامح مع أولئك الذين يفكرون بأسلوب آخر و (ادعو الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) و (جادلهم بالتى هى أحسن) (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) و (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) • فالذى يسمح بنزع الحرية حقيقة هو النظام

الاسلامى فمعاييره وقيمه هى من عند الله الكريم ، فالبشر أمامه سواسيه . ولكن النظام السياسى أو النظام الاقتصادى أو أى نظام آخر معاييره وقيمه من صنع البشر فهى تحابى بل وعادة ما يتوخى صانعوها تحقيق مصالحهم فاذا حدث واحتوى نظام من هذه النظم المجتمع فانه بالضرورة سيغتصب حقوق النظم الأخرى ، لأنه سيقع تحت وطأة المصالح والهوى طالما هو من صنع البشر .

ومن أجل هذا نحن نريد منافسة ذات طابع شرعى بين النظم من النوع الذى لا يمكن أن يحدث عندما نظام غير النظام الاسلامى يغتصب وظائف النظم الأخرى ويحتوى المجتمع ، فالنظم الأخرى تحتاج الى التنفس لتستطيع النمو والقيام بوظائفها على الوجه الأكمل فيتحقق النمو للمجتمع كله . ولا يسمح بذلك الا النظام الدينى الاسلامى اذ تنطلق منه قيم الايمان والاخلاص فتكون لب النظم الأخرى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .